صلاح الدين الأيوبي
وأسراب الحمام

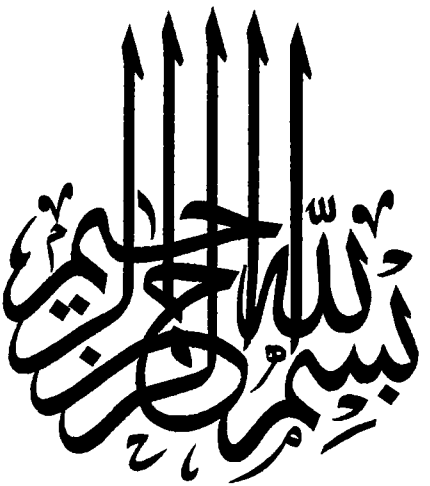

خليل محمود الصمادي

صَلاَح الدِّيْنِ الأيوبيُّ
وأسرابُ الحمامِ

دار الكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

محفوظة
جميع الحقوق

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

الإهداء

إلى :

كُلِّ فتًى يحِبُّ التاريخ ويعشق الجغرافيا .

كُلِّ فتاة تحِبُّ أمَّتها وتسعى لخدمتها .

كُلِّ منْ يرفض الظلم والاحتلال ويتطلع للعدالة .

كُلِّ منْ يحِبُّ العباد والبلاد والنبات والطُّيور والمياه وكُلِّ شيء حي .

الأبطال الَّذِيْنَ صنعوا لنا تاريخاً ما زلنا نعيش فِي ذاكرته .

أهلنا فِي تكريت والموصل وحَلَبَ ودِمَشْقَ وبعلبكَ والقاهرةِ والإسْكَنْدَرِيَّةِ ودمياط وطبرية وبيت المقدس حَيْثُ تجري أحداث هَذِهِ الرّواية .

المرابطين عند بوابة السماء، فِي ساحات الْمَسْجِدِ الأقصى .

أقدم هَذِهِ الرّواية .

ملاحظة :

تتطابقُ أحداثُ هَذِهِ الرّوايةِ بشكلٍ كبيرٍ مَع الأحداثِ التَّاريخيةِ منذُ ولادةِ صَلاَح الدِّيْنِ عام (٥٣٢) وَحَتَّى وفاتهِ عام (٥٨٩) من الهجرة ؛ وَحَتَّى الخيال الَّذِيْ فِيْهَا لَمْ يخرجها عَنْ سياقِها التاريخي .

الشّخصيات حسب تسلسلها فِي الرّواية

١ـ **نجم الدين أيُّوبَ** : والد السُّلْطَان صَلاَح الدِّيْنِ الأيوبي تَولَّى قَلْعَة تكريت ثُمَّ مَدِيْنَة بَعْلَبَكَّ فِي جبل لبنان .

٢ـ **ست الملك خاتون** : والدة صَلاَح الدِّيْنِ

٣ـ **صَلاَح الدِّيْنِ يُوْسُفُ** : ولد صَلاَح الدِّيْنِ سنة ٥٣٢هـ بقلعة تكريت لمَّا كَانَ أبوه نَجْمُ الدِّيْنِ أَيُّوب حاكمها .

٤ـ **عِمَاد الدِّيْنِ زَنْكي** : والد نُوْرِ الدين . قائد عسكري وحاكم قوي ، حكم أجزاء من بلاد الشَّام وحارب الصَّلِيْبِيِيْنَ .

٥ـ **أسدُ الدين شِيْركُوه** : عمُّ صَلاَح الدِّيْنِ الأيوبي .

٦ـ **عمانوئيل** : إمبراطور بيزنطة جاءها بجيوش جرارة ودخل إلى سورية ووصل قرب حَلَبَ .

٧ـ **الشَّيْخُ عبد القادرِ** : هُوَ الشَّيْخُ عبد القادر الجيلاني إمام وفقيه أنشأ أكثر من (٤٠٠) مدرسة أنشأت الجيل الَّذِيْ حرر الْبِلادَ من الصَّلِيْبِيِيْنَ .

٨ـ **السُّلْطَان نُورُ الدين الشَّهيد** : محمود بن عمادِ الدِّين بن آق سنقر . يُلقَّب بالملك العادل حكم دِمَشْقَ ودفن فِيْهَا .

٩ـ **ستّ الشَّامِ « فَاطِمَة خاتون »** : أخت صَلاَح الدِّيْنِ الأيوبي . وَهِيَ زوجة ابن عمها مُحَمَّد بن شِيْركُوه أمير حِمْصَ ، وكانت قبل ذلك زوجة عمر بن لاجين .

١٠ـ **عصمة الدين خاتون** : زوجة نور الدين ثم صَلاَح الدِّيْنِ بعد وفاة الأول .

١١ـ **حُسَام الدِّيْنِ بن لاجين** : محمد بن عمر بن لاجين ، ابن ست الشَّام أخت صَلاَح الدِّيْنِ .

١٢ـ **إسماعيل بن نُوْرِ الدين** : استلم حكم الشَّام ومصر بَعْدَ وفاة وَالِدِهِ ولم يبلغْ عمره (١١) عاماً .

١٣ـ **أحمد بن أَيُّوب** : شقيق صَلاَح الدِّيْنِ كَانَ يصغره بستِ سنواتٍ ، لقبَ بالملك العادل .

١٤ـ **الخليفة العاضد الفاطمي** : آخر خلفاء الفَاطِمِيِّينَ فِي مِصْرَ .

١٥ـ **أرناط** : أو رينالد قائدٌ صليبي مثيرٌ للجدل فِي حياته وَبَعْدَ مماته .

١٦ـ **سيبيلا** : زوجة ملك الْقُدْسِ « غي دي لوزينيان »

* * *

وِلَادةٌ عسيرَةٌ

نَحْنُ الآنَ فِي سنةِ (٥٣٢) من الهجْرةِ ، وبَعْدَ أَنْ أنْهى مؤذِّنُ قَلْعَةِ تَكْرِيْتَ أذانَ الفجْرِ سُمِعَ من جنباتِ الْقَلْعَةِ ومن بيتِ أميرِها **نجمِ الدين أيُّوبَ** صراخُ مولودٍ جديدٍ بشَّرتْ بهِ القابلةُ قائلةً :

ـ أبْشروا آلَ أيُّوبَ فَقَدْ رزقكمُ اللهُ غلامًا جميلاً .

لَمْ يأبهْ[1] نَجْمُ الدين كَثِيْرًا لهذا الخبرِ المفرحِ فعليهِ أَنْ يؤمَّ المصلينَ لصلاةِ فجرِ هَذَا اليومِ الجديدِ ، وعلى غيْرِ عادته قرأ بعد الفاتحةِ في الركعتين من قصارِ السورِ ، وعَلَى غيرِ عادتهِ أيضًا جدَّ الخُطا[2] بَعْدَ الصَّلاة ليكحِّلَ عينيهِ بالزّائرِ الجديدِ ؛ مما جعلَ بَعْض المصلينَ يلحقونَ بهِ صائحينَ :

ـ خيرًا أَيُّهَا الأمير !!

---

(١) يأبه : يهتم .

(٢) جد الخطا : أسرعَ .

ـ لا شيءَ ، لا شيءَ يدعو للقلقِ ! ، لَقَدْ أنعمَ اللهُ علينا بغلامٍ ولم أرَهُ بعدُ .

ـ تبارك اللهُ ، اللَّهُمَّ احفظْه ، اللَّهُمَّ اجعلْهُ منَ الصَّالِحينَ ، ما شاءَ اللهُ .

هكذا توالتِ التهاني والتبريكاتُ قبلَ أَنْ يرى نَجْمُ الدين وليدَهُ .

وَصَلَ نَجْمُ الدين أيُّوبُ إلى بيتِهِ فرحًا مستبشرًا ، حَمَلَ المولودَ الجديدَ وأدنى فاهُ من أذنيهِ هامسًا : اللهُ أكْبَرُ ، اللهُ أكْبَرُ ، أشهد ألا إله إلا الله . . . . .

التفتَ إلى أمِّ الغلامِ وَقَالَ لها :

حمدًا لله عَلَى سلامتكِ يا ستَّ المُلكِ ، ماذا تحبينَ أَنْ تُسمِّيْ مولودَنا ؟

رَدَّتْ عَلَيْهِ : ما رأيُكَ أَنْ نسميهُ يُوْسُف ؟

سُرْعانَ ما رَدَّ عَليْهَا : نِعْمَ الاسمُ ، ونعمتْ سيرةُ نبيِّ اللهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ .

لَمْ تكتملِ الفرحةُ بالمولودِ الجديدِ ، فالْحَمَامَةُ الَّتِيْ حطَّتْ عَلَى بُرْجِ الْقَلْعَةِ صباحَ هذا اليومِ حملتْ رسالةً من السُّلْطَان عِماد الدِّيْنِ زَنْكي من الْمُوصِلِ جاءَ فِيْهَا :

ـ السَّلامُ عَليكُم ، نطلب من نَجْمِ الدِّيْنِ أيُّوبَ وأخيه شِيْركُوه

ومَنْ مَعَهُمَا من المُسْلِمِيْنَ أَنْ يتركوا قَلْعَة تَكْرِيْتَ والتوجهِ إلى قَلْعَة الْمُوصِلِ حالَ وصولِ كتابِنَا هَذَا ! .

لا بدَّ من تنفيذِ أمرِ السُّلْطَان فهُوَ عَلَى عِلْمٍ أنَّ عِمَاد الدِّيْنِ يُرِيْدُ تعزيز القوة فِي الْمُوصِلِ لمواجهة الصَّلِيْبِيِّيْنَ الْقَادِمِيْنَ من بيزنطة بقيادة « عمانوئيل » الَّذِيْ استولى عَلَى بَعْضِ الْقُرَى فِي طريقِهِ وأعملَ سيفَهُ فِي رقابِ المُسْلِمِيْنَ .

أيفرحُ نَجْمُ الدِّيْنِ بمولودِهِ الجديدِ ، أَمْ يحزنُ عَلَى تركِ الْقَلْعَةِ الَّتِيْ نشأ فِيْهَا ؟

فلو كَانَ الأمرُ بيدهِ لانتظرَ شهرًا أو شَهْرَيْنِ حَتَّى يشتدَّ عودُ المولودِ الجديدِ ، ولكنَّ حماية الْبِلادِ من غدرِ الصَّلِيْبِيِّيْنَ والجهادِ فِي سبيلِ اللهِ هِيَ الَّتِيْ شغلتْ بالهُ .

وعَلَى عجلٍ أمر أيُّوبُ عمَّالَهُ بصنعِ هودجٍ[1] كبيرٍ يتسعُ لفرشةٍ تحملُ الوالدةَ والمولودَ ، وهودجٍ آخرَ لابنته فَاطِمَة ونساء العائلة ، وقبل أَذَان ظهرِ هذا اليوم المشهودِ كانتْ القافلة[2] عَلَى وشكِ الرّحيلِ ، وبكلِّ لطفٍ وعنايةٍ أعانتِ النِّساءُ المهاجراتُ المولودَ الجديدَ وأمَّه فِي الجلوسِ بالهودجِ ، وأما فَاطِمَةُ ابنةُ الخمسِ سنواتٍ

---

(١) الهودج : محمل يوضع على ظهر الجمل تجلس فيه النساء .

(٢) القافلة : مجموعة من المسافرين .

فأصرّت أَنْ تكون فِي الهودج مَع أمِّها وأخيها الرّضيع الجميلِ يوسُفَ .

سارتِ القَافِلَةُ وسارَ مَعَهَا كلُّ مَنْ كَانَ فِي الْقَلْعَةِ وخِلالَ الطَّريقِ المتعِبِ لَمْ ينفكَّ يُوسُفُ الصَّغِيْر عنِ البكاء فِي النّهارِ ساعةً ، وفي اللّيلِ ساعاتٍ وساعة مَع أمه تهدْهدُهُ[1] ، وساعة مَع فَاطِمَة تناغيه[2] حَتَّى يَكُفّ عن البكاء .

ما بالُ هَذَا الرّضيعُ الصَّغيرُ لا يَكُفّ عن البكاءِ إلا سويعاتٍ قليلةً ، ويبدو أَنَّهُ يملك صوتًا قويًا ملأَ المكانَ ووصلَ إلى صيوانِ آذانِ كُلّ من كَانَ فِي هَذِهِ الهجرة المباغتة والتي لَمْ تسرَّ الكثيرين حَتَّى أنَّ بعضَ المهاجرينَ أبدى ضجرهُ ؛ بَلْ سرتْ بَيْنَهمْ إشاعةٌ تهامَسُوا بِهَا : أَنَّ النَّحسَ قَدْ أصابهمْ منذُ قدومِ هَذَا المولودِ !!

وما لبثْتْ أَنْ لامستْ أسماعَ نَجْمِ الدين فأسرَّها فِي نفسِهِ وكظمَ غيظَهُ[3] .

فِي فتراتٍ متباعدةٍ من المسيرِ كَانَ الحادي[4] يطلبُ من الجموعِ أَنْ يأخذوا قسطًا من الرّاحةِ رأفةً بهمْ ولا سيَّما للوالدةِ والمولودِ ، وتخفيفًا من ضجرِ المتشائمين .

---

(١) تهدهده : تحركه بلطف حتى ينام في مهده .

(٢) تناغيه : تداعبه بلطف .

(٣) كظم غيظه : أخفى غضبه .

(٤) الحادي : الرجل الذي يسلي المسافرين فيشدو لهم .

وخِلالَ استراحةِ اليومِ الثالثِ وعندَ الظهيرةِ إذْ فارسٌ يتجهُ نحوَهم !! فأوجسَ فِي نفسهِ خيفةً أيُّوبُ ورجالُهُ .

وقفِ الرّجالُ متأهبينَ لهذا القادمِ الغريب !! حَتَّى أَنَّ بعضَهم جَثَا عَلَى الأرضِ موجهًا نبالَه نحوه ، ترجّلَ الفارسُ عَنْ فرسهِ بسرعةٍ ، وأماطَ اللثامَ[1] عَنْ وجههِ ، فإذا بشيخ ستينيٍّ ، ضئيلِ الجسم غزا الشَّيب لحيته ، يبدو عَلَى محياه التعب ، عيناه تسفران عَنْ ذكاء لامع ، صاحَ أيُّوبُ :

ـ أهلا بشيخِنا الجليلِ أهلا **بالشَّيخِ عبد القادرِ**[2] وهرع ليقبل يديْهِ .

سحبَ الشَّيْخُ يمناهُ بسرعةٍ من كفي أَيُّوبَ قبل أَنْ تصل إلى فِيْهِ وَهُوَ يقولُ :

ـ أهلا بك يا أيُّوبُ ، سألتُ عنكم أثناء تفقدي الكُتَّابَ[3] والمدارسَ ؛ فعلمتُ أنَّكمْ فِي طريقكم للمَوصِلِ فأحببتُ أَنْ أودِّعكم وأبارِكَ لكم بالمولودِ الجديدِ ، هاتِ الغلامَ يا نَجْمَ الدِّيْنِ .

نزلت فَاطِمَة من الهودج تحمل أخاها الرّضيع الَّذِيْ ما زال يبكي

---

(١) وأماطَ اللثامَ : كشف وجهه .

(٢) هو الشيخ عبد القادر الجيلاني المشهور بفتح المدارس .

(٣) الكُتاب : المدارس الصغيرة وغالباً ما كانت تلحق بالمساجد .

اقتربت من أبيها وناولته الصغير يُوْسُفَ ، حمله بكلتا يديهِ واقترب من الشَّيْخِ وناوله إياه .

ـ تفضل يا شَيْخَنا .

حملَ الشَّيْخُ عبدُ القادرِ المولودَ الجديدَ وضمَّه لصدرِهِ فهدأت نفس الصَّغِيْر وانقطع البكاء فجأة ، فرح أَيُّوب وفاطمة وَكُلُّ من شهد اللقاء العجيب ، أدنى الشَّيْخُ فاه من أذن الرّضيع وَاتَّجَهَ للقبلة وردَّد بصوت عذب سمعه من كَانَ أكثر قربًا من الرّجال والغلمان ، ولم يسمعه من البنات إلا فَاطِمَة وبعض صديقاتها ، وَلَمَّا أنهى الشَّيْخُ : الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . رده لأبيه وَقَالَ أَمَامَ الأشهادِ :

ـ اللَّهُمَّ باركْ بالموهوبِ ، اللَّهُمَّ اجعلْ هزيمةَ الصَّلِيْبِيِّيْنَ عَلَى يديهِ .

ثمَّ نظر إلى الْجَمِيْع وقالَ :

ـ أَيُّهَا المسلمون استبشروا خيرًا بابنِ أيُّوبَ ، فنبي الله مُوسَى ، لبث رضيعًا في بيت فرعون وهزمه وهزم جندَهُ .

لَمْ يزدِ الشَّيْخُ عَلَى ذَلِكَ ، ورفضَ طلبَ أيُّوبَ وتوسلاتِ الرّجالِ فِي أخذِ استراحةٍ مَع المسافرينَ ، أو تناولِ الطَّعامِ والشَّرابِ ، بلِ امْتطى جوادَه ووضعَ لثامَه ورجعَ من حَيْثُ أتى .

احتارَ أيُّوبُ وشِيركُوه ومن مَعَهُم من الرّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ من أمرِ هَذَا الشَّيْخِ الَّذِيْ حلَّ بسرعةٍ ورحلَ بسرعةٍ !! وما سرُّ الدعاء ، وما العلاقة بَيْنَ الرّضيع يُوْسُفَ ونبيِّ الله مُوسَى ، والصليبيين وفرعون !!

لكنَّ الَّذِيْ فهمَه الْجَمِيْع أَنَّ يُوسُفَ الرّضيعَ قَدْ كفَّ عَنْ البكاء ، فتحولَ التشاؤمُ والحزنُ إلى فرحٍ وسرورٍ .

فِي قَلْعَةِ الْموصِل

وأخيرًا وصلتِ القافلةُ للموصلِ الَّتِيْ يحيط بِهَا سور كبير وعلى أعلى قمة فِيْهَا تربض قلعتها الرّابضة عَلَى ضفة نهر دجلة والتي تحيط بِهَا أسوار شامخة وأبراج كثيرة ، دخل الْجَمِيْعُ الْقَلْعَةَ رأوا فِيْهَا مخازن للمؤنِ وعتادًا ولوازم الحربِ وبيوتًا كثيرة بينها جامعٌ كبيرٌ ، وهُناكَ أخذ الْجَمِيْعُ قسطا من الرّاحة ، كُلٌّ فِي بيته المعدِّ لَهُ سلفاً ، فَقَدْ أَمرَ السُّلْطَان عِمَاد الدِّيْنِ زَنْكي بتجهيزِ بيوت للجميع ، وأما بيت أَيُّوب فلم يكن إلا كبيتِ واحد منهم إلا أَنَّهُ وجد فِيْهِ سرير ليوسف الرَّضيع .

ويومًا بَعْدَ يومٍ صارَ يُوسُفُ يحبو فِي ثنايا البيتِ ثُمَّ صارَ يدرجُ بَيْنَ ثنايا الْقَلْعَةِ ، وبَعْدَها صارَ يمشي ويركضُ مَع أخته فَاطِمَة وأصدقائه من الصبيان والبنات يلعب ويلهو معهم ومعهن ، إلا أَنَّهُ صار يركبُ الخيلَ ويرمي السّهامَ دون البناتِ ، ويحفظُ قصارَ السّورِ من والديه

حينًا ومن أختِه فَاطِمَةَ الَّتِيْ كانتْ من أبرع طالباتِ كتَّابِ البناتِ فِي الْقَلْعَةِ .

بلغ يُوْسُفُ خمسَ سنينَ وما زالَ فِي قَلْعَةِ الْمُوصِلِ ، فأحَبَّ نَجْمُ الدين أيُّوبُ أَنْ يكونَ ولَدَهُ عَلَى درجةٍ منَ العلمِ الشَّرعيِّ فَاهتمَّ بِهِ وأرْسَلهُ إلى كتَّاب الْقَلْعَةِ ؛ لينهلَ مِنْهَا الزلالَ العذبَ ، فحفظَ القرآنَ الكريمَ منذُ نعومةِ أظْفارِهِ ، وفَهمَ كَثِيْرًا منْ أحاديثِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ ، وأعجبَ بقول عمرَ رضي اللهُ عَنْهُ :

« علموا أولادكم السباحة والرّماية وركوب الخيل »

فتعلَّم السِّباحةَ ثُمَّ انْطلقَ إلى نوادي الرّمايةِ والفروسيةِ ليتعلمَ فنونَ القتالِ مَع أقرانهِ من أهل قلعة الموصل ومن خارجها .

إلا أنَّ هوايةً جميلةً أخذتْ جزءًا من اهتمامِهِ ، وَهِيَ تربيةُ الحمامِ ، فصارَ يقتربُ مِنْهَا أكثرَ وأكثرَ ويقدّمُ لها الحَبَّ والماءَ ، ويعتني بفراخها ، وأمَّا أخته فَاطِمَة فكانت كثيراً ما تنظِّف أعشاشَها ، وتغير عيدانها .

وكمْ كانت فرحتهما كبيرة وهما يستمتعان برؤيتها مَع أقرانهما من الأولاد والبنات وَهِيَ تطير منْ مكانٍ إلى مكانٍ ومن برجٍ إلى برجٍ .

وأكثر ما كَانَ يُحبُّ منْ أنواعها الزاجل الَّذِيْ يَحْمِلُ الرّسائل بَيْنَ الْقِلاعِ والحصونِ ففاطمة تعلمت هذه المعلومة من مُدَرِّستها ،

وأخبرت بها يوسف الَّذِيْ سرَّ كثيراً ولا سيما لمَّا كان يرى فاطمة تقرأ بعض الرسائل الَّتِيْ تفكها من أرجل الحمام .

خلال تلك الفترة كَانَ أَيُّوبُ ورجالُهُ يتدربون يوميا عَلَى الفروسية والرّماية فِي بطاح الْمُوصِلِ وساحاتها وكثيرا ما كَانَ يُوْسُفُ يخرج معهم ويشاركهم فِي كُلّ مهاراتهم .

وفي عام (٥٤١) بلغَ يُوْسُفُ التاسعةَ منْ عمرِهِ ، يومها خرجَ والدُه وعمُّه وعددٌ كبيرٌ من الرّجالِ مَع السُّلْطَان عِمَاد الدِّيْنِ زَنْكي لملاحقة فلولِ[1] الصَّلِيْبِيِّيْنَ فِي الرّها والمَوْصِلِ والجزيرةِ والفراتِ ، أراد يُوْسُفُ أَنْ يخرج معهم ويشاركهم وبالرّغم من توسلاته إلا أَنَّ أباه رفض الأمر بتاتاً وطلب منه أَنْ يبقى فِي الْقَلْعَةِ مَع أمه وأخته وبقية أفراد عائلته وأنَّ ينْكبَّ عَلَى دروسِهِ وفروسيتهِ والدعاءِ للمُجاهِدينَ بالنصرِ والثباتِ .

بَعْدَ يَوْمَيْنِ رَجعَ المجاهدون بالنصر فأقيمت الأفراح فِي جنبات الْقَلْعَةِ ، وَبَعْدَ شَهْرَيْنِ عادوا الكرة وخرجوا إلى قَلْعَةِ جَعْبَرَ حَيْثُ جاءت الأخبار أَنَّ بعض فلول الصليبين قَدْ وصلوا هُنَاكَ يحاولون الاستيلاء عَلَى الْقَلْعَةِ ، حاول يُوْسُفُ أَنْ يرافقهم وَلَكِنَّهُ بقي مَع أمه وإخوته بَعْدَ أَنْ سمع ما قاله أبوه :

ـ ما زلت صغيرًا عَلَى الجهادِ يا يُوْسُفُ ، عَلَيْكَ أَنْ تهتم

---

(١) فلول : بقايا الجيش المهزوم .

بدروسك وبالتدريب يومياً ، وكذلك فإن حماماتك بحاجة لرعايتك .

ذَاتَ يوم صَعدَ إلى بُرْجِ الْقَلْعَةِ يتفَقَدُ حماماتهِ ، رفعَ بصرهُ للسماءِ فإذا بطيرٍ زاجلٍ يأتي من الشَّرق يحطُّ بَيْنَ يديه ، قرأَ الخبرَ الَّذِيْ نزلَ عَلَيْهِ كالصاعقة :

ـ « لَقَدْ تمَّ الغدر بالسّلطانِ عِمَاد الدِّيْنِ بوضع السّم فِي شرابهِ أثناءَ حصاره للصليبيين فِي قَلْعَةِ جَعْبَرَ ، هنيئًا لَهُ بالشَّهادةِ ، لا تقلقوا ، فالجهادُ ماضٍ إلى يومِ القيامةِ »

المرسلُ : « نجمُ الدين أيُّوبُ »

المكانُ « قَلْعَة جَعْبَرَ »

حزن يُوْسُفُ عَلَى موتِ السُّلْطَان وأخبرَ أختهُ فاطمةَ وأمّه وكُلّ النِّساءِ اللواتي كنَّ فِي الْقَلْعَةِ ؛ فاشتدَّ حزنهنَّ عَلَيْهِ وصرنَ يدعوْنَ لَهُ بالرّحمةِ والمغفرةِ .

وبَعْدَ أيام رَجِعَ أيُّوبُ وشِيركُوه وجنودهما إلى قَلْعَةِ الْمُوصِلِ ، فَقَدْ حرروا قَلْعَة جَعْبَرَ وطردوا الصَّلِيْبِيِيْنَ مِنْهَا ، يومها أخبروا يُوسُفَ وغيرَه أنَّ السُّلْطَان الجديد نُوْر الدين القابع[1] فِي قَلْعَة دِمَشْقَ قَدْ تَولَّى مسيرةَ وَالِدِهِ فِي جهادِهِ ، وأنَّهُ أصدرَ أمرًا بنقل نَجْمِ الدين وشِيركُوه

---

(١) القابع : الجالس .

ومن مَعَهُما من المُسْلِميْنَ إلى قَلْعَةِ حَلَبَ وعليهم أن يتجهزوا للانضمام إلى القافلة المتجهة إلى حلب .

فكَّر يوسفُ الصّغير بما سيحمله إلى حَلَبَ لم يجدْ شيئًا أهم من حماماته الجميلات فوضعها في أقفاص خشبية جميلة وجلس معها في العربة الأخيرة من القافلة يرعاها ويطمئن عليها .

■ ■ ■

فِي قَلْعَةِ حَلَبَ

حَلَبُ جميلةٌ كجمالِ الْمَوصِلِ بَلْ إنَّ قلعتَها أكبرُ منْ قَلْعَةِ الْمَوصِلِ بكثير ، تحيط بِهَا البساتينُ الغنَّاءُ من كُلّ جانبٍ ، مخازنُها كثيرةٌ وبيوتها أوسع ، فِيْهَا مئات الغرفِ ومسجدان كبيران وكتاب ومدارس وأسواق ، وفِيْهَا عددٌ من الدكاكينِ ومخازنُ للطعام والأسلحةِ ، وآبار يشرب مِنْهَا الْجَمِيْعُ ، لكنَّ أهمَّ ما أثار يُوْسُفَ الصَّغِيْر حمامُها الأبيضُ الجميلُ وأبراجُها العاليةُ ، فكان كلَّما رَجِعَ من كتَّابه يذهبُ إلى أبراجِ الحمامِ ويقدِّمُ لها الحبوبَ والماءَ ، ويستمتعُ بهديلِها الجميلِ ومنظرِها السَّاحرِ .

وأما ساحة الْقَلْعَةِ فكانت مركزاً لتدريب يُوْسُفَ وأصدقائه ، فما أَنْ ينتهوا من تلقي العلم فِي مدرسة الْقَلْعَةِ الكبيرة حَتَّى يلتقوا هُنَاكَ بَعْدَ أَنْ يؤدي كُلّ واحد منهم ما عَلَيْهِ من قراءة وكتابة وحفظ وواجبات ، وطبعا بَعْدَ أَنْ يتناول كُلّ واحد منهم طعام بيته اللذيذ ،

يلتقون هُنَاكَ حَيْثُ الرّماية والفروسية والتدريب عَلَى مبارزة السيوف .

مُحَمَّد بن شِيْركُوه ابن عَمٍّ يُوْسُفَ هُوَ المدرب البارع ، والشَّاب اليافع الْمهذب الوسيم الَّذِيْ يحبه الْجَمِيْع وبالرّغم من أَنَّهُ يكبر يُوْسُفَ بعشر سنوات إلا أَنَّ الغلامَ يُوْسُفَ كَانَ يفوز عَلَيْهِ فِي بعض الأحيان فِي الرّمي والمبارزة ، وأما سباق الخيل الَّتِيْ كَانَ يخرج لها الْجَمِيْعُ من الْقَلْعَةِ إلى ساحات حَلَبَ وبساتينها فلا يُوْسُف أو غيره استطاع يومًا أَنْ يسبق خيل مُحَمَّد بن شِيْركُوه ، لِأَنَّ خيلَ مُحَمَّد قويةٌ كقوةِ صاحبِها الفارسِ المقدامِ .

ولكنْ فِي يوم ما وفي فرحةٍ غامرةٍ بَيْنَ الأصدقاءِ عندَ خطِّ النهايةِ استحقَ يُوْسُفُ التَّصفيقَ والتكبيرَ ؛ لَقَدْ فازَ عَلَى مُحَمَّد ابنِ عمِّهِ لأول مرة ولم تكنْ بَيْنَ الفرسين إلا أمتارٌ قليلةٌ ، حَتَّى أنَّ بعضَ الأصدقاءِ المشككين ظنَّ أنَّ محمدًا قَدْ تراخى كَيْ يفوز ابن عَمّه يُوْسُفَ لغاية فِي نفسه !!

وَلَمَّا وَصَلَ يُوْسُفُ لِلْقَلْعَةِ كَانَ خبر فوزه عَلَى ابن عَمّه مُحَمَّد قَدْ سبقه إليها ، فنال التبريكات والتهاني منْ أمِّهِ وأبيه وَلَكِنَّهُ فوجىءَ بقولِ فَاطِمَةَ وَهِيَ تضحك :

ـ لا شكَّ أَنَّ ابن عمك تراخى لك يا يُوْسُفُ !!

رَدَّ عليها متعجبًا :

ـ أنتِ مَعِي أَمْ مَع مُحَمَّد ؟

قالت لَهُ :

ـ أنا مَع الفارسِ الهُمَامِ[1] .

مدرسةُ الْقَلْعَةِ كبيرةٌ ومتميزة ، يدرس فِيْهَا جميع الأولاد عندما يتخرجون في الكتاب ، وفِيْهَا قسم للبنات تدرس فِيْهَا فَاطِمَةُ وبناتُ عَمِّها وصديقاتها .

النظامُ فِي الْمَدْرَسَة صارمٌ فشعارُها :

« لكلٍّ منّا مذهبُه الدِّيني والفكري ، فالإسلامُ يجمعنا ولا يفرقنا ، وتحرير الْقُدْسِ هدفنا »

أَمَّا المحظورات الخمسة الَّتِيْ عُلِّقتْ فِي بهوِّ الْمَدْرَسَة فَهِيَ :

* يمنعُ النقاش فِي المذاهب الإسلامية إلا فِي دروس الفقه .
* يمنعُ الحلف بالله أو غيره ، صادقاً أو كاذبًا .
* يمنعُ تكفير أيٍّ من أهل القبلة[2] .
* يمنعُ اللعن والسب والشَّتم .
* يمنعُ الكذب جادًا أو هازلاً .

---

(١) الهمام : القوي ذو الهمة العالية .

(٢) أهل القبلة : المسلمون بكل مذاهبهم .

وأما التعليم فهو عَلَى أحدث الطُّرق ، فالصَّلاة عَلَى وقتها ، والدروس الدينية والعربية والعلمية عَلَى مواعيدها ، وأما دروس الرّماية والتدريب فلها اهتمام خاص من قبل المدرب مُحَمَّد بن شِيْرِكُوه .

اليوم لَمْ تكن مدرسة البنين عَلَى عادتها ، فالاستعدادُ لاستقبال الضيف القادم عَلَى أشده ، من مديرِ الْمَدْرَسَة وَحَتَّى عمال النظافة .

خلال الفسحة الأولى ذهب يُوْسُفُ إلى غرفة ابن عَمِّهِ محمدً وسأله :

ـ ما الأمر يا أستاذ مُحَمَّد ؟

قَالَ مُحَمَّد :

ـ اليوم سيحضر من بغداد سلطان الأولياء ليلتقي بالمعلمين والطُّلاب .

ـ ومَنْ سلطان الأولياء هَذَا ؟ قَالَ يُوْسُفُ

رَدَّ عَلَيْهِ مُحَمَّد :

ـ إنَّهُ الشَّيْخُ عبد القادر فمدرستنا هَذِهِ تَحْتَ إشرافه !!

قَالَ يُوْسُفُ فِي دهشة :

ـ من بغداد ، إنها بعيدة عَنْ حَلَبَ !

قَالَ مُحَمَّد : الشَّيْخُ لَهُ أكثر من ٤٠٠ مدرسة منتشرة فِي بلاد الشَّام والعراق ، وَهُوَ يقوم بتفقدها عَلَى مدار العام ، واليوم هُوَ قادم من مدرسة قَلْعَةِ سمعان القريبة من حمص .

وَصَلَ الشَّيْخُ الوقور لمدرسته فِي الْقَلْعَةِ ، إِنَّهُ فِي السبعين من عمره ، مازالت عيناه تبرقان من تَحْتَ عمامة خفيفة لطيفة ، وأما جلبابه البسيط فَقَدْ بدت عَلَيْهِ علامات السَّفَر ، لكن جسمه أضحى أكثر نحولاً ترافقه انحناءة فِي الظهر لَمْ يلاحظها أَيُّوب إلا اليوم ، همَّ ليقبل يده لكن الشَّيْخ سحبها بقوَّة وَهُوَ يصيح :

ـ استغفرُ الله ، ثُمَّ قالها لشيركوه أَيْضًا .

قوبل بكل حفاوة وتكريم قام بجولةٍ تفقَّد فِيْهَا جميع مرافق الْمَدْرَسَة ودعا لاجتماعٍ لجميع المعلمين والطُّلاب بَعْدَ صَلاةِ الظُّهْرِ فِي مسجد الْقَلْعَةِ .

هُنَاكَ ألقى فيهم درساً حثهم فِيْهِ عَلَى آداب التعلم وحسن التواضع ، واسترسل فِي تفسير الآيات الأولى من سورة الإسراء وكأن المدرسينَ والطُّلابَ يستمعونَ لها لأول مرة .

بَعْدَ انقضاء الاحتفال ذهب كُلّ إلى درسه وعمله ، وكعادته تنقل الشَّيْخ بَيْنَ الفصول يستمع يسأل هَذَا ويناقش ذاك ، ويستمع إلى حفظهم ويتأكد من سلوكهم وتهيئة الجيل الجديد .

وفجأة يشير لأحد التلاميذ بَعْدَ أَنْ تفرَّس فِي وجهه ويقول لَهُ :

ـ قف يا بني ، وكأنني رأيتك من قبلُ ما اسْمكَ ؟

ـ يُوْسُفُ يا سيدي الشَّيْخ .

ـ يُوْسُفُ ابنُ منْ ؟

ـ ابن أَيُّوب يا شيخَنَا

ـ ما شاء الله تبارك الله يا ابن أمير الْقَلْعَةِ ماذا تحفظ من القرآن الكريم ؟

ـ احفظُ القرآنَ كلَّه يا شيخَنَا .

ومنَ الأحاديثِ النبويَّةِ ؟

ـ مُسْند الإمامِ أحمدَ .

ومن الفقه ؟

ـ الأمّ للشَّافعي

ـ من أول مولود للمسلمين بَعْدَ الهجرةِ ؟

ـ عبدُ الله بن الزبير وأمُّه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم .

ـ ما شاء الله ! ومن أول من رمى بسهم فِي سبيل الله ؟

ـ سيدنا سعد بن أبي وقاص .

ـ متى أسري بالرّسول صَلَّى الله عَلَيْهِ وسلم من الْمَسْجِدِ الحرام إلى الْمَسْجِدِ الأقصى ؟

ـ عَلَى قولين بعضهم قَالَ قَبْلَ الهجرةِ بسنةٍ ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ فِي السَّنة السَّادسة من البعثة .

ـ أين ولد الإمام الشَّافعي ؟

ـ فِي غزة هاشم عام (١٥٠) من الهجرة .

قَالَ الشَّيْخ : ما شاء الله ، تبارك الله ، اللَّهمَّ انفع المسلمين بعلمك يا يُوْسُفُ ثُمَّ أمر مدير الْمَدْرَسَة أَنْ يسجل اسمه فِي السجل الَّذِيْ يحمله .

قبيل انصراف التلاميذ من مدرستهم كانت شهادات التخرج توزع على المتفوقين ومنهم يوسف بتوقيع من مدير المدرسة وتصديق من الشيخ الجليل ، إلا أن شهادة يوسف حملت توصية الشَّيْخ عبد القادر :

ـ أوصي بأن يتابعَ يُوْسُفُ بنُ أَيُّوبَ تحصيْلَه العلمي فِي مدرستنا القريبة من الْجَامِعِ الأمويّ بدِمَشْقَ أو فِي مدرستنا ببغداد .

الطَّريق إلى دِمَشْقَ

لابدَّ من الانصياع لتوجيهات الشَّيْخ الجليل وتحقيق رغبته فِي الغلام الَّذِيْ بلغ الحادية عشرة ، امتلأ بيت أَيُّوب بالمودعين بَعْدَ صلاة عشاء هَذِهِ الليلة الجميلة ، كَانَ أبرز المودعين أمه ست الملك خاتون وأخته فَاطِمَة وعمه شِيْركُوه وابنه مُحَمَّد وعلى رأسهم الأمير أَيُّوب .

بَعْدَ صلاة فجر اليوم التَّالِي ومع تنفس الصباح أَلْحقَهُ بقافلةٍ متجهةٍ هُنَاكَ فِيْهَا عددٌ منَ التُّجارِ والمسافرينَ وأرسلَ مَعَهُ خادمًا ليكونَ لَهُ عَونًا فِي الطَّريق ، ومرشدًا لَهُ بدِمَشْقَ .

لَمْ تكنِ الطَّريقُ آمنةً ، فالعِصاباتُ الصَّليبيةُ تسْرحُ وَتمْرحُ فِي بَعضِ المناطقِ الَّتِي استولتْ عَلَيْها ؛ فَهِيَ تُرهِبُ المسافرينَ وَتستولي عَلَى مَتَاعهمْ ، وفِي أحسنِ الأحوالِ تفْرضُ عليهم ضَرائبَ كَيْ يمروا بأمانٍ !!

لَمْ ينسَ الغلامُ يُوْسُفُ أَنْ يأخذَ مَعَهُ عددًا منْ طيورِ الحمامِ الزاجلِ حَتَّى يأْنسَ بِهَا فِي أوقاتِ فراغهِ كما أَنَّهَا وسيلةٌ جيدةٌ للتواصلِ مَع أبيه وأمِّهِ وإخوتِهِ كُلَّما اشْتاقَ إليهِم .

وَضَعَ الحماماتِ فِي قفصٍ خشبيٍّ ووضَعَ لها الحبَّ والماءَ وتركَها فِي آخرِ عربةٍ من القافلةِ .

سَارتِ القَافِلَةُ عدةَ أميالٍ وَمَا أَنْ قَطعتْ بيوتَ حَلَبَ ومساجدَها وأسواقَها ، وَأَصبحتْ بَيْنَ الجبالِ والتِّلالِ حَتَّى شَعَرَ يُوْسُفُ أنَّ القافلةَ بدأتْ تسيرُ ببطْءٍ شديدٍ ، وأنَّ حَادِيَ الإبلِ الَّذِيْ كَانَ يبعثُ الهِمَّةَ فِي النفوسِ ويُسَلي المسافرينَ بصوتِهِ النَّديِّ قَدْ كفَّ عنِ الشَّدوِ والغناءِ .

دُهِشَ الغلامُ الصَّغِيْر لمَّا رأى الصَّمتَ يزدادُ ، والرِّجالَ يتهامَسونَ بَيْنَهم ، اقْتربَ منْ خادمهِ وسألَهُ : ما الأمرُ ؟

هَمَسَ الخادمُ : إنَّنَا فِي خطرٍ ، الصَّلِيبيونَ خلفَ التِّلالِ ، علَيْنا أَنْ نَجْتازَ هَذِهِ المِنْطَقةَ بحذرٍ شديدٍ .

انصاعَ يُوْسُفُ لأَوامرِ خادمهِ ، وسَارَ مَع القافلةِ بخطًى وئيدة ، وصارَ يدعُو اللهَ أَنْ يمرُّوا بسلامٍ .

الموقفُ رهيبٌ ، الرِّجالُ يَضَعونَ الكَمَّاماتِ عَلَى أفواهِ الجِمالِ ، والأَلْجِمةَ[1] عَلَى أفواهِ البغالِ والخيولِ ، وعيونُ المسافرينَ ترقبُ

---

(١) الألجمة والكمامات : أغطية من قماش أو جلد توضع على وجوه الحيوانات .

التلالَ المحيطةَ بهم وَهُمْ يحطُّونَ أقدامَهُم عَلَى الأرضِ بهدوءٍ وتؤدةٍ[1] ، حَتَّى الهمسُ انقطعَ فجأةً منَ المكانِ . . .

فِي لحظةٍ لَمْ تكنْ بِالحسبانِ وعَلَى مقربةٍ منْ أحدِ التِّلالِ بَرَزَ نفرٌ مِنَ الفرسانِ الصَّلِيبِيِّينَ ، شَاهرينَ سِلاحَهم ، وَأَخَذُوا يَصْرَخونَ : قِفُوا قِفُوا ، وإلا رَمَيْنَاكم بِالسّهامِ والنبالِ .

تَوقَفتِ القَافلةُ وَبَدأتِ المعاناةُ . . .

أحاطَ الصَّلِيبيونَ بالقافلةِ من الجِهاتِ كُلِّها ، وأخذوا يُحذِّرونَ المُسَافرينَ منْ المقاومةِ ، ثُمَّ طلبوا مِنهُم أَنْ يترَجَّلوا[2] عَلَى الأرضِ .

نزلَ الْجَمِيْعُ الأرضَ بما فيهم يُوْسُفُ ، فَجْأةً اقْتربَ مِنهُ الخَادمُ قَائلاً : إيَّاك أَنْ تفصحَ عَنْ نَفْسكَ ، إياكَ أَنْ يعلمُوا مَنْ أبُوكَ أوْ عمُّكَ ، فلوْ عَرَفُوكَ لأَخَذوكَ أسِيرًا ، وَطَلبُوا فديةً[3] عَظِيمةً مقابلَ الإفْراجِ عَنْكَ ، هَذَا إنْ لَمْ يقْتلوكَ !!

سَمِعَ يُوْسُفُ نصائحَ خَادِمِهِ ، وَوعدَهُ ألا يَبُوحَ بالسِّرِّ ، وَلَكِنَّهُ سَأَلَهُ : فِي أيِّ مَكَانٍ نَحْنُ الآنَ ؟ وكمْ نبعدُ عَنْ حَلَبَ ؟

---

(١) تؤدة : ببطء .

(٢) ترجل الرجل : مشى على رجليه .

(٣) الفدية : ما يُقدَّم من مال ونحوه لتخليص أسير أو غيره .

أَجَابَهُ الخَادمُ : عِنْدَ تِلالِ الصفوانِ ، نبعدُ عَنْ حَلَبَ نَحْوَ خَمْسةِ أميالٍ .

أَجابَهُ يُوْسُفُ : حسنٌ ، حَسنٌ ، يَا أخِي .

تَركَ الغلامُ الصَّغِيْر خادمَهُ واقفًا يراقبُ الصَّلِيْبِيِّيْنَ ، وانْزَوى خَلْفَ القَافلةِ ، فظنَّ الخادمُ أَنَّهُ التحقَ بعربةِ النِّساءِ والأطفالِ فانفرجتْ أساريرُ وجهِهِ ، ثُمَّ مَا لبِثَ أَنْ عادَ إلى المُقدمةِ ، رَآهُ الخادمُ فَطَلَبَ مِنهُ أَنْ يعودَ ثانيةً إلى المؤخرةِ حَيْثُ النِّساءُ والصِّغارُ !!

لَمْ يسْمعْ يُوْسُفُ كلامَ خَادِمِهِ وَأَصَرَّ عَلَى البَقَاءِ بَيْنَ الرِّجَالِ .

أَخَذَ الصَّغِيرُ ينظرُ إلى اللصُوصِ فَرَأَى وُجُوهَهم الحمْراءَ وَشَعْرَهمُ الأصْفرَ كَأَنَّهمُ الشَّياطينُ ؛ فازْدَراهمْ[1] وَتمنَّى لوْ كَانَ مَعَهُ سيفٌ لنازلهمْ جَميعًا .

وَقَفَ زَعيمُ العصَابَة أَمَامَ القَافِلَةِ يَصرخُ بِلغةٍ عَرَبيَّةٍ مُكَسَّرةٍ : أَنْتُمْ فِي أَرْضٍ صليبيةٍ عليكمْ أَنْ تَدْفعوا الفدْيَةَ[2] مقابلَ السَّماحِ لكمْ بالمُرورِ ، مِقدارُ الفدْيَةِ الَّتِيْ ستَدفَعُونَها : عَشرةُ دنانيرَ عَنْ كلِّ رجلٍ وَخَمْسةٌ عَنْ كلِّ امْرأةٍ ، وَدِيْناران عَنْ كُلّ طفلٍ ، وَعَليْكمْ كَذَلكَ أَنْ تَتْرُكوا نِصْفَ أحْمالِكمْ ، وَمَنْ يقاومْ منْكمْ نُصادر أحْمَالَهُ كلَّهَا وَنَقْتلُهُ ، هيَّا أسْرِعُوا أَمَا سَمِعْتُمُ الكَلامَ ؟

---

(١) ازدرى : احتقر .

(٢) الفدية : مبلغ من المال .

نَظَرَ الخادمُ إلى يُوْسُفَ فرآهُ غاضِبًا ، يكادُ الشَّررُ يتطايَرُ من عينيهِ ، فخافَ عَلَيْهِ ، واقْتَربَ مِنهُ وَأَمْسَكَ بِيَدِهِ ، وَرَجَاهُ ألا يَنْفعلَ وَأَوْصاهُ ثانيةً ألاَّ يُفْصِحَ عنِ اسْمِهِ .

تَرَجَّلَ فَارِسانِ منَ الصَّلِيْبِيِّيْنَ وقَامَا بِغرْسِ رمْحَينِ فِي الأرضِ ، ثُمَّ أحْضرا رمحًا ثالثًا وَرَبَطَاهُ بَيْنَهمَا ، ولمْ يُحْكِما وِثَاقَهُ وَجَعَلاهُ يَتَحرَّكُ للأعلى أو الأسفلِ كمَا يحْلُو لَهُما ، وَلَمَّا انْتهيا مِنْ مُهمَّتهِما صاحَ قائِدُهُم :

يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ فردٍ منْكم أَنْ يَمُرَّ أَوَّلاً مِنْ هَذِهِ البوابةِ ، ثُمَّ يَدفع الفدْيَةَ للفارسِ الموجودِ هُنَاكَ وَلْيقفْ كلُّ واحدٍ فِي مكانِهِ بَعْدَ أَنْ يصلَ هُنَاكَ !!

أخذت ضحكاتُ الصَّلِيْبِيِّيْنَ تَتعالى فِي المَكانِ وَهُمْ يَسْخرونَ منَ المارينَ ، فالرّجلانِ اللذانِ نصَبَا الرّماحَ وَقَفَ كلُّ واحدٍ مِنْهُمَا يمْسِكُ بطرفِ الرُّمحِ الأفقيِّ الثَّالثِ يتعمدانِ رفْعَهُ وَخَفْضَهُ حَتَّى يَمُرَّ الْمَرءُ رَاكعًا وَإِنْ لَمْ يُعجبَا بالرَّجلِ خَفَضَا الرُّمحَ حَتَّى يمرَّ سَاجدًا !!

وَقَفَ يُوْسُفُ يَتَأَمَّلُ الرّجالَ وَهُمْ يمرُّونَ مِنَ البوَّابةِ فَلَمْ يَتمالكْ أعصَابَهُ فَصَرَخَ بِأعلَى صَوْتِهِ : كَفَى أَيُّهَا المجْرمونَ أَلا توقِّرون[1] كبيرًا ؟ ألا تحترمونَ عاجزًا ؟ألا تشفقونَ عَلَى طفلٍ صغيْرٍ ؟! !

---

(١) توقرون : تحترمون .

سَمِعَ الصَّلِيبيونَ كلامَهُ فتوعدوهُ صائحينَ : وَأَنْتَ ستمُّر كَمَا يمرُّ الباقونَ وَسَنرى شَجاعَتَكَ بَعْدَ قليلٍ .

صاحَ القائدُ :

هيَّا يا غلامُ يا بطلَ الأبطالِ ، أَرِنا شَجَاعتكَ ستمرَّ منْ هُنَا ، لا واقفًا ولا راكعًا ، بَلْ حبوًا !! .

وَفِي سُرعةِ البرقِ أمرَ القائدُ الرَّجلينِ أَنْ يخفضَا الرُّمحَ إلى أَدْنَى مستوًى ، وَصَرخَ فِي وَجْهِهِ : هيَّا تقدمْ . . . . ألمْ تسمعْ كَلامِي ؟

رَمَقَهُ[1] يُوْسُفُ بِطَرَفِ عينهِ ولمْ يَتَحرَّكْ منْ مَكَانِهِ .

كرَّرَ القائدُ كلامَهُ : أَيُّهَا الأبْلهُ أَمَا تسمعُ ؟ . . هيَّا نفذِ الأوامرَ وإلا جَعلتكَ عبْرةً لغيرِكَ .

صاح يُوسُف : لنْ أنْحنِيَ إلا للهِ عزَّ وجلَّ .

كادَ قلْبُ الخادمِ يسْقطُ أرضًا ، اقتربَ مِنهُ راجيًا أَنْ ينفذَ الأوامر ، لكنَّ الغلامَ الشُّجاعَ قَالَ لَهُ : لنْ أمرَّ حَتَّى لوْ قَتَلتمُونِي .

امْتطى قائدُ العصَابةِ جَوادَهُ وَهُوَ فِي حَيْرةٍ منْ أَمْرِ هَذَا الغُلامِ العنيدِ ، وانْطلقَ يدورُ حَوْلَهُ وَهُوَ يقولُ : مَنْ أنْتَ أَيُّهَا الغلامُ حَتَّى تعصِيَ أوَامرِي ؟ لَقَدْ أخَّرتنَا كَثِيْرًا !! .

---

(١) رمق : نظر إليه بالطول والعرض .

صاحَ كثيرٌ مِنْ الرّجالِ : نفّذِ الأمرَ يا غلامُ ودَعْنا نمشِي فِي سبِيلِنا ، ولا تعاندْ كَثِيْرًا .

أخذَ القائدُ الصليبيُّ يلفُّ ويدورُ حَوْلَه علَّه يُرهبَهُ وانْطلقَ نحوَهُ كالرّيحِ ، اقتربَ أكثرَ وأكثرَ ، لكنَّ البطلَ الصنديدَ ظلَّ راسخًا كالطودِ[1] الشَّامِخِ .

شدَّ لجامَ[2] فرسِهُ ، وترجّلَ واندفعَ نحوَهُ والشَّررُ يتطايرُ منْ عينَيْهِ وَهُوَ يرْعدُ :

مَنْ تظنُّ نفسكَ أَيُّهَا العنيدُ ؟ سأقتلك فِي الحالِ إنْ لَمْ تنفذِ الأوامرَ !

رفعَ سيْفَه إلى الأعْلى . . . ولكنَّ الصبيَّ لَمْ يهتزَّ وظلَّ يحدِّقُ[3] برئيسِ العصَابةِ وكأنَّ شَيْئًا لا يعنيهِ .

غرسَ سيفهُ فِي الأَرْضِ وَصَاحَ بأَعْلى صَوْتِهِ : لَمْ أرَ فِي حَياتي غُلامًا عَنيدًا مثلكَ !! آهٍ لوْ كنتَ كَبيرًا لقَتلتكَ ، ولكنَّ الَّذِيْ يَشْفَعُ لَكَ هُوَ صغْرُ سِنِّكَ .

وَتَابَعَ حَديْثَهُ : سَأُسَامحُكَ بالمبلغِ ؛ ولكنْ عَلَيْكَ أَنْ تمرَّ منْ بَيْنَ الرِّماحِ مرتينِ .

---

(١) الطود : الجبل العظيم المرتفع .

(٢) اللجام : مَا يُجْعَلُ فِي فَمِ الفَرَسِ مِنْ حَدِيدَةٍ فِي طَرَفَيْهَا سَيْرٌ مِنْ جِلْدٍ .

(٣) حدَق إلى الشَّيءِ : نظر إليه مليًّا .

ـ لنْ أمرَّ

ـ مَاذا تَقولُ ؟

ـ الَّذِيْ سَمِعْتَهُ الآنَ !!

احتارَ القائدُ منْ أمرِ هَذَا الغلامِ العنيدِ وأحبَّ أَنْ ينهِيَ الموقفَ بحفظِ ماءِ وَجْهِهِ ، قَالَ لَهُ :

ـ حسنًا ، حسنًا ، لا تمرَّ ؛ ولكنْ علَيْكَ أَنْ تَدْفَعَ الفدْيَةَ خَمْسةَ دنانيرَ بدلَ الدِّينارينِ !!

ـ لـنْ أدفـعَ لـكَ شَيْئًـا !! سيـأتـي يـومٌ تـدفعـونهـا لنـا وأنتـمْ صاغرون[1] !!

ـ مَاذا تَقُولُ يَا غلامُ ؟

ـ مَاذا سَمِعْتَ يَا هَذَا ؟

ـ لا تقلْ يا هَذَا ، أنا اسْميْ « سيمونُ » قائدُ هَذِهِ المجموعةِ يا هَذَا !!

عِنْدهَا هُرِعَ الخَادمُ نَحْوَ القائدِ الصليبيِّ وَهُوَ يَحْمِلُ الدنانيرَ الذَّهبيةَ الخَمْسةَ ، صَاحَ بِهِ يُوْسُفُ :

ـ ارْجعْ مَكَانَكَ وَلا تعْطِهِ شَيْئًا !!

---

(١) صاغر : ذليلٌ .

أخذَ بعْضُ رجالِ القافلةِ يتَمِلْملونَ منَ الانْتظارِ ، والخَوْفُ يعْلُو وجُوهَهُم وصَاروا يَرْجونَ يُوسُفَ أَنْ يتركَ الخادمَ يَدْفع الدنانيرَ الخمسةَ وَينْهي المشكلةَ الَّتِيْ طالتْ . . .

تَقَدَّمَ الخَادمُ مِنْ يُوسُف وسألهُ بصوت منخفضٍ :

ـ ما سرُّ هَذَا العِنَادِ يا يُوْسُفُ لَقَدْ أعييتنا[1] !!

فَقَالَ لَهُ :

ـ انْتظرْ قَلِيْلاً وسَتَرى مَا يُعْجِبُكَ !! انظرْ انظرْ إلى هَذَا الغبار المتجهِ نحوَنا !!

وَمَا كادَ يُوْسُفُ يُنْهِي كَلامَه حَتَّى كَانَ جُنُودُ أيُّوبَ وَشِيركُوه قَدْ أَحَاطُوا بِالجنودِ الصَّلِيْبِيِيْنَ مِنْ كلِّ جَانبٍ ، عِنْدَها صَاحَ النَّاسُ : اللهُ أكْبَرُ ، اللهُ أكْبَرُ .

أمْسَكَ جُنُودُ أيُّوبَ الشُّجعانُ بالصَّليبيينَ العَشرةِ وَأَحضَرَ شِيْركُوه حَبْلاً غَلِيْظًا شَدَّهمْ بِهِ وَاسْترَدَّ مِنهُمْ مَا سَلَبوهُ مِنْ المُسافرينَ وَرَدَّهُ إليهمْ .

صَاحَ أيُّوبُ : الْحَمْدُ للهِ عَلَى سَلامةِ الْجَمِيْعِ ، أَيْنَ أنْتَ يَا يُوْسُفُ ؟

صَاحَ الغُلامُ : أَنَا هُنَا يَا أبِي !!

---

(١) أعيا : أتعبَ .

اقتربَ يُوْسُفُ منْ أبيهِ وَعَمِّهِ وَسلَّم عَليهمَا وعلى جنودِهما وَشَكَرَهُمْ عَلَى مَا قَاموا بِهِ .

قَالَ أبوهُ : الشُّكْرُ للهِ أوَّلاً ثُمَّ للحَمامةِ الَّتِيْ أَوْصَلَتِ الرِّسَالَةَ .

ذُهِلَ الْجَمِيْعُ مِمَّا حَصَلَ ، فَالمفاجأةُ نزلتْ كالصاعقةِ عَلَى أفْرادِ العصابةِ الأشرارِ وزعيمِهم سيمونَ ، الَّذِيْنَ سِيقُوا كالخِرافِ أَمَامَ جنودِ المُسْلِميْنَ إلى قَلْعَةِ حَلَبَ .

طلبَ أيُّوبُ من يُوسُفَ أَنْ يرجعَ مَعَهُ إلى حَلَبَ لكنَّه أبى ورفضَ قائلا لَهُ :

ـ لا تخفْ يا أبتي فَقَدْ أصبحتُ رجلاً ، عندها نزلَ أيُّوبُ عندَ رغبةِ وَلدِهِ ، فودَّعهُ ودعا لَهُ وللجميع أَنْ يحميَهُمُ الله منْ شرورِ الصَّلِيْبِيِيْنَ .

■ ■ ■

فِي قَلْعَةِ دِمَشْقَ

واصلتِ القافلةُ سيرها ، وأخيرًا وبَعْدَ شروقِ الشَّمْسِ بقليل ، بدتْ دِمَشْقُ منْ أعالي جبل قاسيونَ وكَأَنَّهَا جزيرةٌ فِي بحرٍ تحيطُ بِهَا غوطةٌ[1] خضراءُ يخترقها نهرٌ اسْمه بردى ، وبدا سورُ دِمَشْقَ الكبيرُ يحيط بمئات البيوت والشّوارع ،وبدتْ قلعتُها الرّابضةُ فِي طرفِها الغربيّ وأما مسجدُها الكبيرُ ذو المآذنِ الثلاثِ فبدا فِي وسطِ المدينةِ وحَوْلَه قصورٌ ومبانٍ كبيرةٌ .

عندَها صاحَ يُوْسُفُ : يا إلهِي ما أروعَ الجَامعَ الأمويَّ !!

رَدَّ عَلَيْهِ أحدُ التّجارِ : ما شاءَ الله ،كَيْفَ عرفْتَ اسْمَهُ ؟

عندها تدخلَ الخادمُ قائلاً : ابنُ أيُّوبَ تلميذٌ نبيهٌ ، يعرفُ العلمَ الكثيْرَ وحريٌّ بِهِ[2] أَنْ يَعْرفَ الكثيرَ عَنْ دِمَشْقَ لا عَنْ

---

(١) غوطة دمشق: بساتين خضراء تحيط بدمشق وتنقسم الغوطة إلى شرقية وغربية .

(٢) حري به : الأفضل له .

مسجدِها الجامعِ فحسبُ .

وقبلَ أَنْ تتفرقَ القافلةُ ، ويذهبُ التُّجارُ إلى الخاناتِ والأسواقِ ، والفلاحونَ إلى قراهمْ ومزارعهمْ ، نادى منادٍ كَانَ بانتظارِ الموكبِ الكبيرِ : أَيْنَ ابنُ أَيُّوبَ وخادمُهُ ؟

صاحَ الخادمُ : نَحْنُ هُنَا يا أخانا

رَدَّ عَلَيْهِ : أنتما فِي ضيافةِ السُّلْطَان نُوْرِ الدِّيْنِ فَقَدْ أعدَّ لكما مكانًا لائقًا فِي قَلْعَةِ دِمَشْقَ .

قَالَ يُوْسُفُ : باركَ اللهُ فِي السُّلْطَان وقلْعتهِ ولكنْ هَلْ تأذنَ لنا أَنْ نذهبَ للمسجدِ الأمويِّ أولاً ثُمَّ نعودَ لِلْقَلْعَةِ .

رَدَّ الرّجلُ : بكلِّ رحبٍ وسرورٍ وسأرافقكم إلى هُنَاكَ .

بَعْدَ أَنْ أدّى يُوْسُفُ وخادمُه ركعتي سنةِ السَّفَرِ ، ذهبا مَع المرافقِ إلى قَلْعَةِ دِمَشْقَ .

الْقَلْعَة مِنَ الخارجِ كَأَنَّهَا الأسدُ الرّابضُ ، كبيرةٌ شامخةٌ وحجارتُها غارقةٌ فِي التّاريخِ ، وبابُها ضخم مرتفع لا يقدر عَلَى فتحه إلا الرّجال الأشداءُ ، أَمَّا من الداخلِ فَهِيَ كقلعةِ حَلَبَ : أبواب وأبراج وبيوت ودكاكينَ ومدارسَ وكتّاب ومسجد إلا أَنَّهَا تختلف عَنْهَا بصغرها وعدم بنائها عَلَى تلة مرتفعة .

فما أَنْ اقتربا من وسطها كَانَ السُّلْطَان فِي استقبالهما فِي مقر قيادتهِ فشرع يسألُ :

ـ كَيْفَ حالُكَ ، وكَيْفَ حالُ أبيكَ وعمّكَ وجميع أهلك يا يُوْسُفُ ؟

ـ الْحَمْدُ للهِ بخيرٍ .

وكَيْفَ حالكَ أَيُّهَا المرافقُ وكَيْفَ حالُ المسلمينَ فِي حَلَبَ ؟

ـ نحنُ بخيرٍ مادامَ السُّلْطَان بخيرٍ .

بَعْدَ أن اطمأنَّ السُّلْطَان نُوْرُ الدين محمودُ عنهما وعنِ الَّذِيْنَ يرابطونَ فِي حَلَبَ أشارَ إلى غرفتينِ متجاورتينِ قربَ مسجدِ الْقَلْعَةِ قائلاً : أَتَمَنَّى أَنْ تطيبَ لكُمَا الإقامةُ فيهما .

رَدَّ يُوْسُفُ :

ـ بارِكَ اللهُ فيكَ ، ولكنْ أَرْجُو أَنْ أجدَ فِي الْقَلْعَةِ مكانًا لحمامتي !!

ـ بكلِّ سرورٍ يا ولدي ؛ فنحن نحبُّ الحمامَ . قَالَ السُّلْطَان نُوْرُ الدينِ .

بدأَ يُوْسُفُ فِي مسيرةِ العلمِ فِي مدرسة الشَّيْخ هُنَاكَ وفوجىء من اليوم الأول بالمحظورات الخمسة نفسها وبخطها الكوفي نفسه والتي كانت فِي مدرسة قَلْعَةِ حَلَبَ فَهِيَ أَيْضًا معلقة فِي ديوان الْمَدْرَسَة بشكل لافتٍ للنظرِ .

لَمْ يكتفِ بدروسِ الْمَدْرَسَةِ وَبَعْدَ الانصرافِ مِنْهَا كَانَ يعرج عَلَى

الْجَامِعِ الأُمويّ يلازم العلماءَ وعندما يعود لمأواه فِي الْقَلْعَةِ كَانَ يصْغي للأدباءِ ، وليلة الجمعة يحرص عَلَى مجلس نُوْر الدين مَع العلماء والأعيان .

وحَوْلَ الْمَسْجِدِ الأموي العشرات من المدارس الَّتِيْ أنشأها السُّلْطَان نُوْر الدين ، ولعل أهم مدرسة كَانَ يعرج إليها يُوْسُفُ ويأخذ بعض الدروس هِيَ « دار الحديث النورية » فَقَدْ خصصها نُوْرُ الدين لتعليم الحديث الشَّريف واستقدم إليها عشرات العلماءِ المختصين بعلمِ الحديثِ وأسندَ رئاستها للإمام الحافظ مؤرخ دِمَشْقَ ابنِ عساكر .

وأما الْمَدْرَسَة العصرونية والتي تقع إلى الشَّمال الغربي من الْمَسْجِدِ الجامع فَقَدْ أنشأها الفقيه مُحَمَّد بن عصرون القادم من بغدادَ ؛ لتدريس المذهبِ الشَّافعي فوجد فِيْهَا يُوْسُفُ ضالته فهو يحبُّ الإمام الشَّافعي ويحب آراءه الفقهية فتعمَّقَ فِي مذهبه ، وَقَدْ حفظ كثيرًا من كتبِ الفقهِ الشَّافعي عَنْ ظهر قلب ، خلال فترة قصيرةٍ ، فأجازه[1] الفقهاء بشهادتهم جميعًا وأشهرهم الإمام أبو شامة المقدسي .

كما لفت نظره إلى لوحة اعتلت بناءً حديثًا إلى الغرب من الْجَامِعِ الأُمويّ حملت اسم « دار الخط العربي » فدخل إليها والتحق مَع

---

(١) أجاز : أصبح مؤهلاً للتدريس .

مجموعة من الفتيان بَعْدَ أَنْ اشترى من سوق الوراقين كراساتٍ وقصباتٍ وأحبارًا وخلال أقل من شَهْرَيْنِ صار خط يُوْسُفَ من أجمل الخطوط ، فهو يهتمُّ بهِ لأنه دائم المراسلة مَع أحبائه .

تبحَّرَ[1] فِي العلومِ كلِّها من هُنَا وهُنَاكَ ومن مخطوطات كانت تملأ مكتبة الْقَلْعَةِ ، فسمعَ الأحاديثَ الشَّريفةَ ، وتفقهَ فِي الدين وحفظ الأشعارَ الحماسيةَ وبرعَ فِي الحسابِ والرّياضياتِ والتاريخِ ، وكان يخرجُ كُلَّ يومِ جمعةٍ إلى ساحةِ الْقَلْعَةِ يتدرب عَلَى الخيولِ ، ولمْ ينسَ حماماتِهِ فظلَّ وفيًا لها ؛ فهُوَ يُحبُّها لأنه يُحبُّ لونَها الأبيضَ ، وهديلَها الهادىءَ ، وعملها الدؤوب ، وَلَمَّا رأى نُوْرُ الدِّيْنِ اهتمامه بالحمامِ طلب مِنهُ أَنْ يكونَ مسؤولاً عَنْ بريدِ الحمامِ الزاجلِ ، وَلَمَّا رأى إخلاصَهُ فِي العملِ أسْند[2] لَهُ مهمة أخرى تكونَ صباحَ كُلِّ يومِ جمعةٍ قَبْلَ شروقِ الشَّمْسِ بقليلٍ وَهِيَ الإشرافُ عَلَى توزيعِ الحليبِ لأطفالِ دِمَشْقَ الْفُقَرَاء .

دُهِشَ يُوْسُفُ من الطَّريقة الَّتِيْ يتمُّ فِيْهَا توزيع الحليب فما عَلَيْهِ إلا أَنْ يقفَ أعلى البرجِ قربَ حماماتهِ ويراقبَ توزيعَ الحليبِ فِي المِزْرَابِ[3] الَّذِيْ اعتادَ الصبيانُ أَنْ يضعوا أوعيتَهم الفارغة تحتَه

---

(١) تبحَّر : تعمق وتوسع فيه .

(٢) أسند : وَكَلَ إِلَيْهِ مُهِمَّةً جَديدَةً .

(٣) المِزْرَابُ : الميزاب ، وهو أنبوبة من الحديد ونحوه تركب في جانب البيت من أعلاه ليَنْصَرِفَ منها ماءُ المطر المتجمع .

ليعودُوا إلى إخوتِهم الصِّغارِ بأوعيةٍ مليئةٍ بالحليبِ !!

بلغ يُوْسُفُ هَذَا العام سبعةَ عشرَ عامًا لَقَدْ صارَ رجلاً قويًا بعلمِهِ وجسمه وقلبه ، لقد اشْتاق لحَلَبَ ولأهله فِيْهَا ، فها هي الْحَمَامَةُ الَّتِيْ حطت عَلَى برج الْقَلْعَةِ لبَّت رغبته وأفرحته كَثِيْرًا ، فالخبر هُوَ زواج أخته فَاطِمَة من القائد البطل عمر بن لاجين ، وعلم فيما بعد أنَّ الأفراح والليالي الملاح أقيمت لهما ، وَقَدْ حضر الْجَمِيْعُ عرسها إلا ابن عمها مُحَمَّد بن شِيْركُوه وطبعًا شقيقها الصَّغِيْر يوسف !!

وَبَعْدَ عدة أشهرٍ حملت لَهُ الْحَمَامَةُ خبراً مزعجًا :

لقد استشهد عمر بن لاجين فِي معركة مَع الصليبين قرب قَلْعَةِ الحصن وترك وراءه المسكينةَ فَاطِمَة عَلَى وشكِ الولادةِ .

حزن يُوْسُفُ عَلَى فَقَدِ أبرز قائد من قواد أَيُّوب ، وجهز راحلته وانطلق إلى حَلَبَ حَيْثُ وصلها متأخراً فِي ليلةٍ ظلماءَ ، دخلَ الْقَلْعَةِ وتوجَّهَ لمسجدِها وَبَعْدَ أَنْ صَلَّى ركعتيْ سنة السَّفَرِ توسَّد[1] حذاءه وغطَّ فِي نوم عميق وَلَمَّا حان موعد أَذَان الفجر صعد المئذنة ورفع الأَذَان .

ست الملك خاتون توقظ أَيُّوب وتقول :

ـ هَلْ تسمعُ مؤذن الْمَسْجِدِ ؟ إنَّهُ يشبه صوت يُوْسُفَ

---

(١) توسد : جعله كالوسادة لينام عليه .

حَتَّى فَاطِمَة حضرت من غرفتها وَهِيَ تحمل وليدها الرّضيع الَّذِيْ كفَّ عن البكاء للتوِّ وتقول :

ـ سبحان الله ، ما أشبه صوت المؤذن بصوت يُوْسُفَ !!

رَدَّ عليهما أَيُّوب : أين أنتما من يُوْسُفَ ؟ إنَّهُ فِي قَلْعَةِ نُوْرِ الدين بدِمَشْقَ .

بَعْدَ أَنْ أَمَّ أَيُّوبُ المصلينَ كانت فرحته كبيرة وَهُوَ يدقُّ باب بيته :

أبشري يا خاتون ، أبشري يا فَاطِمَة معي ضيف عزيز غالٍ علينا جميعًا .

صاحتا : يُوْسُفُ ، أَهْلاً وَسَهْلاً بأغلى قادم ،

ثُمَّ قالت ست الملك خاتون :

ـ لا تقل ضيفاً يا أَيُّوب إنَّهُ صاحب البيت .

عانق يُوْسُفُ أمه وأخته والعبرات فِي عينيهِ ، واحْتَار ماذا يقول لأخته ؟ هَلْ يعزيها بوفاة زوجها أَمْ يهنِّئها بمولودها الجديد ؟

أخذ من فَاطِمَة رضيعها وأذَّن فِي أذنيه ودعا لَهُ بالتقوى والصَّلاح وعلو الهمة ثُمَّ قَالَ :

ـ ماذا أسميتموه ؟

ردَّت عَلَيْهِ فَاطِمَة : أسميناه محمدًا .

رَدَّ عليها : ونعْمَ الاسم يا فاطمة ، واسمحي لي أن ألقبه بلقب جميلٍ .

قالت له : ما هو يا أخي ؟

قال لها : إنَّهُ حُسَام الدِّيْنِ يا فَاطِمَة سيكون لَهُ شأن بإذن الله .

قالت له : ونعم الاسم وأتمنى أن يصبح حُسَاما مسلَّطًا على رقاب الصَّلِيْبِيِّيْنَ .

ضحك أَيُّوب وقال : تذكرتُ الشَّيخ عبد القادر يوم هاجرنا إلى الْمُوصِلِ .

ابتسمت فَاطِمَة وقالت :

- إِنَّهُ يوم لا ينسى يا أبي .

قضى يُوْسُفُ يَوْمَيْنِ فِي قَلْعَةِ حَلَبَ لَمْ يزر كَثِيْرًا من أصدقائه وأحبابه حَتَّى تُقَرَّ عيناه بوالديه وإخوته والمولود الجديد ، وَحَتَّى أَنَّهُ لَمْ ير ابنَ عَمِّهِ محمدًا بالرّغم من اشتياقه لَهُ ، ولعل أكثر الأوقات قضاها مَع فَاطِمَة يواسيها ومع حُسَام يداعبه ويلاعبه .

عاد إلى دِمَشْقَ وقلبه معلق بالصَّغِيْرِ حُسَامٍ وبكل أفراد الأسرة ومرَّ بالقرب من تل الصوان فتذكر سيمونَ وعصابتَه وحمد الله عَلَى هزيمة الصَّلِيْبِيِّيْنَ من هَذِهِ المناطق القريبة من ديار المسلمين .

وَصَلَ لقلعته وواصل دروسَه وتدريباته عَلَى فنون القتال كلها ولم

ينسَ الاطمئنان كُلّ حينٍ عَنْ أهله ولا سيما عن الصَّغِيْر مُحَمَّد أو حُسَام الدِّيْنِ .

ذَاتَ يومٍ حملتْ لَهُ الْحَمَامَةُ خبرًا مفرحًا ، لَقَدْ وَصَلَ والده أَيُّوبُ إلى بَعْلَبَكَّ وصارَ والِيًا عَلَيْها ، فبعْلَبَكَّ أقرب بكثيرٍ من حَلَبَ والمَوْصِل إلى دِمَشْقَ ، كما أنبأته حَمَامَة أخرى بَعْدَ أسابيع عديدة بخبر مفرح وَهُوَ تولي عَمّهِ شِيْركُوه إمارة حِمْصَ يساعده فِيْهَا ابنه مُحَمَّدٌ .

فرح لهما وأرسل الرّسائل العديدة مباركًا ومطمئنًا ومتمنيًا اللقاء بجميع أحبَّته .

كَانَ يُوْسُفُ يعلم فِي قرارة نفسه أَنَّ رضى الوالدين بَعْدَ رضا الله ، هُوَ أساس النجاح فِي الحياة الدنيا وَلَهُ ثواب كبير بالآخرة ، لِذَا كَانَ يلح عَلَيهما أنْ يدعُوَا لَهُ بِالتُّوفِيْقِ .

عصرَ ذَاتَ يومٍ وَبَعْدَ رجوعِ يُوْسُفَ إِلى الْقَلْعَةِ من مدرستِهِ وجدَ حركةً غريبةً ، النَاسُ تروح وتجيءُ ، والفرسانُ يقيمونَ الزِّينات ، والنِّساء فِي حلقات هُنَا وهُنَاكَ ، والأطفال ينشدون ، فسأل عن السبب فقيل لَهُ :

ـ لَقَدْ تمَّ أسرُ ملكٍ عظيمٍ منْ ملوكِ الفرنج وَقَدْ أوتي به إلى سجن الْقَلْعَةِ !!

بَعْدَ يَوْمَيْنِ وفي مجلس السُّلْطَان قَالَ نُوْرُ الدين :

ـ ماذا يشير علي القوم بشأن الملك فريدرك الَّذِيْ وقع فِي يدي شِيْركُوه فِي قَلْعَةِ الحصن من أراضي حِمْصَ وجيء به إلى قلعتنا معززًا مكرمًا ؟

تفاوتت الرّدودُ ، بَعْضُهُمْ قَالَ : نقتله حَتَّى يرتدع غيره ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ يبقى فِي الأسر إلى ما شاء الله ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ نبادله بأسرى من المسلمين وَبَعْدَ أَنْ استمع نُوْرُ الدين لرجاله التفت ليوسف قائلاً :

ـ وأنت ما رأيك يا ابن أَيُّوب ؟

قَالَ يُوْسُفُ :

ـ وهل لي رأي فِي مجلس الرّجال ؟

رَدَّ عَلَيْهِ السُّلْطَان : ولمَ لا ؟ فأنت فتى الكهول !!

ابتسم يُوْسُفُ وقال : أنا لست بمنزلة ابن عباس يا سيدي !

وَسُرْعَانَ ما كَانَ جواب السُّلْطَان حاضراً :

ـ وأنا لست بمنزلة عمر بن الخطاب رضي الله عَنْهُ ، هيا اعطنا رأيك يا غلام .

قَالَ يُوْسُفُ : إن كَانَ لي رأي عندكم فأرى أَنْ نطلب فدية كبيرة ونبني بِهَا داراً للمرضى تعالج الْفُقَرَاء والمحتاجين من أهل دِمَشْقَ وزوارها .

قَالَ السُّلْطَان :

ـ نعم الرّأي رأيك يا يُوْسُفُ ، فما رأيكم يا أَيُّهَا الملأ ؟

رَدَّ الْجَمِيْعُ : نعم الرّأي رأي السُّلْطَان ، ونعم الرّأي رأي ابن أَيُّوب .

لَمْ يمض أسبوع واحد وأثناء ذهاب يُوْسُفَ لمدرسته القريبة من الْجَامِعِ الأُمويّ رأى عمالاً يعملون بجد ونشاط فِي رقعة أرض كبيرة تقدمتها لوحة قرأ فِيْهَا : « بعون الله تعالى سيقام هُنَا بيمارستان للفقراء والمحتاجين وسيتم تمويله من الفدية الَّتِيْ دُفعت جراء إطلاق سراح الملك فريدرك » .

سر يُوْسُفُ سروراً عظيماً ، لا لِأَنَّ رأيه هُوَ الَّذِيْ أخذ به السُّلْطَان ، بَلْ لِأَنَّ الْمَرْضَى من الْفُقَرَاءِ والمحتاجين سيجدون مأوى لَهُمْ ومكاناً لعلاجهم .

■ ■ ■

الرّسالة العجيبة

ذَاتَ يوم استاء من حَمَامَة قادمةٍ من حِمْصَ حملت لَهُ رسالة غريبة جاء فِيْهَا :

ابنة عَمِّي الغالية فَاطِمَة

لستُ سعيدًا فِي حِمْصَ ، فأنا فِي غاية الشَّوق لرؤيتك والتحدث معك أتَحَيَّنُ أقرب فرصة لزيارة بَعْلَبَكَّ .

سلامي لعمي أَيُّوب ولأمك خاتون ، وإن زرتم دِمَشْقَ فأبلغوا سلامي للفارس يُوْسُفَ الَّذِيْ ظن أَنَّهُ فاز عليَّ فِي سباق الْقَلْعَةِ .

تحياتي وأشواقي

ابن عمك مُحَمَّد بن شِيْركُوه

قَلْعَة حِمْصَ

احتار يُوْسُفُ من أمر هَذِهِ الرّسالة الَّتِيْ وصلت من حَمَامَة غبية

ضلت طريقها ، ماذا يفعل أيخبر والديه بمحتواها ، أَمْ يرسل رسالة عتاب لأخته فَاطِمَة أَمْ ماذا ؟

قضى ليلته فِي همٍّ وغمٍّ ، يفكر ماذا يفعل ، وأخيراً فتح وريقة صغيرة وخط فِيْهَا :

إلى : ابن عَمِّي مُحَمَّد بن شِيْركُوه

حمامتكم ضلَّت طريقها وحطَّت عَلَى بُرْج قَلْعَةِ دِمَشْقَ

« وادخلوا البيوت من أبوابها »

ابن عمك : يُوْسُفُ بن أَيُّوب

قلعة دِمَشْقَ

وفي الصباح الباكر ربط الرّسالة فِي رِجل الْحَمَامَةِ نفسها وطيَّرها إلى حِمْصَ !!

وعادَ إلى غرفته يفكِّر في هذا الأمر الَّذِيْ أقلقهُ كثيراً ، حَتَّى أَنَّهُ غاب عن مدرسته هذا اليوم ، وعاف الطَّعام والشراب وبدا في هيئة لا تسر القريب ولا البعيد ، وحدثته نفسه : أيعقلُ أن تكون بين محمد وفاطمة علاقة غرامية ؟

هَلْ فاطمة تحب محمدًا ومحمدٌ يحبها ؟

إذا كان الأمر كذلك فلمَ لا يتزوجانِ ؟

لم تهدأ نفسه إلا بَعْدَ يَوْمَيْنِ إذْ حَطَّت حمامةٌ قادمةٌ من حِمْصَ بجواب جاء فِيْهِ :

ابن عَمِّي العزيز

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لَقَدْ دخلتُ باب بيتكم من أوسع أبوابه ، فيومَ خروج أبيكم أَيُّوب لِبَعْلَبَكَّ سارعت مَع أبي لبيتكم ، وَقَدْ خطبت الغالية فَاطِمَة ووافقت عَلَى ذَلِكَ ، وسُرَّ والداك لهذا الأمر وَقَدْ حددنا موعد الزفاف فِي الصيف القادم

ابن عمك

مُحَمَّد بن شِيْركُوه

قَلْعَة حِمْصَ

ارتاح يُوْسُفُ من هَذِهِ الرّسالة كَثِيْرًا وكان ارتياحه أكبر فِي اليوم التَّالِي عندما فوجىء بأبيه يدخل الْقَلْعَةَ للسلام عَلَى السُّلْطَان نُوْر الدِّيْنِ ، ويطمئِنّ عَلَى ولدِه وخادمِهِ ، وَلَمَّا خلا بأبيه عاتبه قائلاً :

ـ لِمَ لَمْ تخبروني بأمر خطبة فَاطِمَةَ لمحمدٍ ؟

رَدَّ أَيُّوب :

ـ جاء الأمر عَلَى عجل ليلة سفرنا لِبَعْلَبَكَّ ، وها أنا جئت اليوم هُنَا لأخبرك ، وأستأذن السُّلْطَان بالسماح لك أَنْ تحضرَ الفرحَ .

غادرَ أَيُّوب الْقَلْعَةَ مطمئنًا على سلطانِهِ وولده فرحًا مستبشرًا .

وفي موعد العرس المقرر كَانَ يُوْسُفُ فِي طريقه لِبَعْلَبَكَّ مَع خادمه الأمين وهُنَاكَ فرح مَع الأَهْل وبارك لأخته ولابن عَمّهِ ولكن أوصاه قائلاً :

ـ لن أوصيك بفاطمة فأعلم أنك تحبها ، ولكن أوصيك بابنها حُسَام الدِّيْنِ .

رَدَّ عَلَيْهِ : لا توصِ حريصًا يا ابن عَمِّي ففاطمة عيني اليمين وحُسَام عيني الشِّمال .

بقي فِي بَعْلَبَكَّ أسبوعًا يتجول فِي قلعتها وأسواقِها وبساتينها الناضرة ، وهُنَاكَ أحبَّ فاكهةً ذاقَها لأول مرةٍ !!

فلم يكنْ يعرفُ طعمَ الكرزِ اللذيذِ من قبلُ ، وَلَمَّا رأت أمه حبه لها صارت تحضره عَلَى المائدة فِي مواعيد الطَّعام الثلاثة ، وَقَدْ لا حظت عَلَى يُوْسُفَ أَنَّهُ يحتفظ بالبذار ولا يرميها .

وَلَمَّا عاد لدِمَشْقَ حاولَ زراعته فِي قَلْعَةِ دِمَشْقَ وغوطتها فلم ينجحْ ؛ لأنَّه عَرفَ بَعْدَ حينٍ أنَّ شجرَ الكرزِ لا يثمرُ إلا فِي المناطقِ الباردةِ ، ولكنَّ أمّه وأختَه فَاطِمَة لمَّا علمتا بفشل تجربته صارتا ترسلانِ لَهُ بعضَ عناقيده عنْدمَا يَحينُ قطافُهُ .

وَبَعْدَ سنتين صدرَ الأمرُ السّلطاني بنقل أيُّوبَ وأسرتهِ لدِمَشْقَ ،

كما تم نقل مُحَمَّد بن شِيْركُوه لدِمَشْقَ أَيْضًا ، ففرح يُوْسُفُ بقدوم الأَهْل ، ولأولَّ مرةٍ يصبح سكنُ يُوْسُفَ خارج الْقَلْعَةِ ، فَقَدْ اتخذَ أبوه بيتًا جميلاً بالقرب من الْجَامِعِ الأُمويّ ، وأمَّا أختُه فَاطِمَة وزوجُها مُحَمَّد فَقَدْ اختار لهما السُّلْطَان نُوْرُ الدين بيتًا قريبًا من بيتِ أبيها وَلَكِنَّهُ كَانَ أقرب للبيمارستان النوري[1] الَّذِيْ سيكون جاهزاً لاستقبال الْمَرْضَى بَعْدَ شَهْرَيْنِ عَلَى أكبر تقدير ريثما يتم تجهيزه بالأطباء والسرائر والأدوية .

هاهم الأطباء يتوافدون عَلَى دِمَشْقَ من هُنَا وهُنَاكَ ويتخذون بيوتًا حَوْلَ البيمارستان ، وينشؤون الأقسام العديدة ، قسم الباطنية وآخر للجراحة ، وقسم للكحالة[2] ، وقسم للجراحة العامة ، وقسم للأمراض النفسية والعصبية ، عشرات الكتب الطِّبية يتم وضعها فِي قاعة خاصة ستكون مكانًا لتدريس الطِّب ، وأما نجارو دِمَشْقَ فَقَدْ صنعوا للمشفى أكثر من مئتي سرير يناسب الْمَرْضَى ، وأما مختبر العقاقير والأدوية فَقَدْ جُهِّزت أدواته ولكن لَمْ يصنع به أي دواءٍ بعدُ .

نُوْرُ الدين يعرف ويقدر مواهب كُلّ من يحيط به أو حَتَّى من كَانَ بعيدًا عَنْهُ .

---

(١) البيمارستان النوري : المشفى القريب من الجامع الأموي .

(٢) الكحالة : طب العيون قديماً .

لَمْ يخطر عَلَى بال فَاطِمَة أَنَّ سبب قدومها لدِمَشْقَ مَع زوجها وابنها الصَّغِيْر كَانَ لمهمة تنتظرها ومهمة أخرى تنتظر زوجها .

أَمَّا المهمة الَّتِيْ استدعيت فَاطِمَة من أجلها فَهِيَ رئاسة قسم العقاقير والأدوية ، فيبدو أَنَّ السُّلْطَان نُوْرَ الدين كَانَ عَلَى عِلْمٍ أَنَّ فَاطِمَة مولعة بعلم الأدوية والكيمياء ، وأنها مولعة باقتناء كتب الطب والصيدلة وقراءتها ، قَدْ ركَّبت الكثير من الأدوية الناجعة فِي بَعْلَبَكَّ للمرضى أغنيائهم وفقرائهم ، فربما علم السُّلْطَان ذَلِكَ من قبل بعض رجاله أو من خلال التقارير الَّتِيْ كانت تصل للسلطان أسبوعيًا من بَعْلَبَكَّ وحمص وحَلَبَ وطرابلس والموصل ومن المناطق الخاضعة لعدله .

فرحت فَاطِمَة بمهمتها الجديدة وقبل تسلم مهام عملها أعطت عمال المشفى قائمة كبيرة بأسماء بعض الأعشاب والمواد الخام من الأسواق القريبة من الْجَامِعِ الأُمويّ وأرسلت بعضه إلى غوطة دِمَشْقَ لإحضار بعض الأعشاب البرية الَّتِيْ تنمو هُنَاكَ بكثرة ، جهزت قسمها قَبْلَ استقبال أي مريض ، وَلَمَّا بدأ الافتتاح وصار الناس يفدون للبيمارستان كانت فرحتهم كبيرة من الدواء النَّاجع الَّذِيْ يصرف لَهُمْ ولهنَّ .

وَبَعْدَ شَهْرَيْنِ من نجاحها صدرَ الأَمْرُ السُّلطاني بتكليفها بالإضافة إلى قسم الصيدلة رئاسة القسم النسوي للمشفى كله ، إنها مهمة كبيرة وذَاتَ مسؤولية عظيمة .

مرت الأيام والأشهر والأعداد الكبيرة الَّتِيْ تزور المشفى وتنام به قَدْ ضاق بهم المكان فما الحل عند فَاطِمَة ؟

فكرت وفكرت ، فرأت أَنَّ المختبر لو جهز لاستقبال الْمَرْضَى لكان خيرًا ، ولكن أين سيكون المختبر الجديد ؟

قسمت بيتها إلى قسمين متساويين ، قسم داخلي اتَّخذته مسكنًا لها ولأسرتها الصغيرة ، وأما القسم الخارجي المطل عَلَى الشَّارع والمقابل للمشفى تمامًا صار المختبر والصيدلية ومعمل الأدوية الَّذِيْ استقدمت لَهُ المزيد من الصيادلة وخبراء الأدوية .

وكثيراً ما كَانَ يُوْسُفُ يمرُّ عَلَى بيت أخته بَعْدَ صلاة العشاء فنهارها مليء بالعمل ولا وقت لاستقبال الزوار وَحَتَّى لو كانوا أقرب الأقارب ، كَانَ يسمر معها ومع زوجها الَّذِيْ كَانَ قَدْ وَصَلَ من مهمته الجديدة فِي الإشراف عَلَى تدريب الفروسية ، ومع حُسَام الدِّيْنِ الَّذِيْ صار يتعلم من الكلام أحسنه ، فها هُوَ قَدْ دخل الكتَّاب القريب من الْجَامِعِ الأُمويّ وبدأت علامات النبوغ والقوة تظهر عَلَى محياه الجميل .

في أحد الأيام أحضر لَهُ خاله زوجين من الحمام ليتدرب عَلَى العناية بهما وكي يألفهما ويألفانه ، وَبَعْدَ عدة أشهر صار عنده أكثر من عشرة أزواجٍ تطير حَوْلَ دِمَشْقَ ثُمَّ تعود وتحط إمَّا عَلَى المشفى أو عَلَى سطح بيتهم ، وَلَكِنَّهَا كانت جميعاً عندما يحل الليل تبيت فِي أبراجها .

كانت طموحات فَاطِمَة كبيرة فطلبت من السُّلْطَان نُوْر الدين بفتح مدرسة للبنات وَسُرْعَانَ ما استجاب لطلبها إذ أصبحت أَيْضًا مشرفة عَلَى الْمَدْرَسَة الَّتِيْ بدأت تعلم البنات القرآن والفقه واللغة العربية والكيمياء والعلوم كلها ، واستقدمت لها المدرسات النابهات ، وأطلقت عليها الْمَدْرَسَة الشَّامية وَلَمَّا رأى نُوْرُ الدين نشاطها وعلو همتها أطلق عَلَى فَاطِمَة لقب أحبته كَثِيْرًا بَلْ أحبه أهل الشَّام إِنَّهُ لقب « سِتّ الشَّامِ » وكم انبهرت من تواضع السلطان عندما أرسل لها كتاباً يقول فِيْهِ :

« نأمل من ستِّ الشام فاطمة بنت أيوبَ أن تقبل زوجتي عصمة الدين خاتون مساعدةً لها في الإشراف على مدرسة البنات »

علم يُوْسُفُ باللقب الجديد فهرع نحوها يهنئها ويبارك لها ، ولم ينسَ مداعبته لحُسَام الَّذِيْ صار صبياً يميز بَيْنَ الخير والشَّر وبين الحمام الزاجل والحمام الأَهْلي .

ومرت الأيام والسنون وأصبح يُوْسُفُ شاباً يشار لَهُ بالبنان ، وحُسَام الدِّيْنِ صبياً مشى عَلَى خطى والده وخاله فنبغ فِي دروسه وفروسيته وعلمه وأصبحت مدرسة البنات الشامية يشار لها بالبنان .

■ ■ ■

الزحف إلى مِصْرَ

فِي عام (٥٦٤) من الهجرة وصلتِ الأخبار العاجلة للسلطان نُوْرِ الدين تفيد أَنَّ الصَّلِيْبِيِيْنَ يستعدّون لغزو مِصْرَ وأن حاكمها **الخليفة الْعَاضِد الفاطمي** لا طاقة لَهُ بالصليبيين وجنودهم وأن الوزير **ضرغام** هُوَ الَّذِيْ دعا الصَّلِيْبِيِيْنَ للقدوم للقاهرة .

بَعْدَ أيام من وصول رسائل الاستنجاد الكثيرة لِدِمَشْقَ من الْقَاهِرَةِ ، وَصَلَ وفد برئاسة الوزير **شَاوَر** لِدِمَشْقَ يحمل صندوقاً غريباً وطلب الاجتماع العاجل مَع السُّلْطَان نُوْرِ الدين .

وافق السُّلْطَان عَلَى مقابلةِ الوزيرِ شَاوَر وصحبِهِ فِي الحال بحضور رجال مجلسه ، حضر الوزراء والقادةُ وأهل الحل والعقد ، وأما يُوْسُفُ فنفذ صبره حَتَّى يعرف ما فِي الصندوق الَّذِيْ يحمله شَاوَرُ .

بَعْدَ السلام والترحيب والتأهيل فتح شَاوَرُ الصندوق بَيْنَ يدي

السُّلْطَان وأفرغ ما به عَلَى الأرض وقال :

سيدي السُّلْطَان نور الدين هَذِهِ ضفائر[1] نساء الْعَاضِدِ وبناته ، ونساء وزرائه ، وكبار موظفيه وضفائر نسائنا أَيْضًا ، فإن لَمْ تدركنا لهلكنا ، لأصبحت نساؤنا سبايا لدى الصَّلِيْبِيِّيْنَ .

ثُمَّ تابع شَاوَرُ حديثه :

سيدي السُّلْطَان إن الوزيرَ ضرغام خان الخليفة الْعَاضِدَ استعان بملك الْقُدْسِ « عموري » ، والعاضدُ لا حَوْلَ لَهُ ولا قوة ، إذ حاصروه فِي قصره وأصبح ضرغام هُوَ الآمر والناهي بدعم من الفرنجة .

تأثر نُوْرُ الدين وَيُوسُفُ وَكُلُّ من بالمجلس من هَذَا المشهد المؤثر ، وما أَنْ أعاد الوزير شَاوَرُ بضاعته إلى الصندوق حَتَّى قَالَ السّلطانُ :

ـ أبشرْ يا شَاوَرُ ، أبشرُوا يا أهلَ مِصْرَ فجيشنا سيصل إليكم فِي أقرب وقت .

جلس شَاوَرُ ووفده يَوْمَيْنِ فِي مضَافة الْقَلْعَةِ زاروا خلالها الْجَامِع الأُمويّ واستمعوا إلى خطيب الجمعة وَهُوَ يحث الناس عَلَى التَّطوع والتدريب استعدادًا للانطلاق إلى مِصْرَ ، ثُمَّ غادروا دِمَشْقَ إلا شَاوَرَ فأحبَّ أَنْ يرافق الْجَيْشَ بنفسه .

---

(١) الضفائر : جدائل الشعر .

الأمر خطير فعلى نورِ الدينِ أَنْ يتحركَ بسرعةٍ لإنقاذِ مِصْرَ ، وعليهِ أَنْ يجهّزَ جيشًا يقودهُ محاربٌ محنكٌ[1] يقضي عَلَى الغزاة وعلى من دعاهم .

بَعْدَ أيامٍ منْ جلسةِ الضَّفائرِ نَادى منادٍ يقرع الطَّبل فِي أرجاء الْقَلْعَةِ :

عَلَى يُوْسُفَ بن أَيُّوب الذهاب فوراً لبلاط السُّلْطَان نُوْرِ الدين .

سمع يُوْسُفُ النداء ، فمن حسن حظه كَانَ عائداً للتو من تدريباته عند ابن عَمّهِ مُحَمَّد بن شِيْركُوه فاستجاب عَلَى عجل ، دخل عَلَى السُّلْطَان وَهُوَ غارق فِي تفكيره ، ألقى عَلَيْهِ التحية فرد السُّلْطَان بأحسن مِنْهَا ، وقال لَهُ :

ادنُ مني يا ابن أَيُّوب .

وَلَمَّا جلس بقربه قَالَ لَهُ :

أَرْسِلْ بريدًا بالحمام الزاجل لعمك شِيْركُوه واطلبْ منه الحضور مَع جيشه لدِمَشْقَ حال وصول كتابنا ، وأخبر ابن عمك محمدًا أَنْ يكثف تدريب جنودنا يومياً فِي الْقَلْعَةِ وبساتين الغوطة .

لَمْ يكتمل اليوم الثاني من وصول كتاب السُّلْطَان لحمص إلا وكان شِيْركُوه ورجاله يرابطون فِي غوطة دِمَشْقَ ، ما هَذِهِ الهمة

---

(١) محنك ، ذو خبرة .

العالية الَّتِيْ قطع فِيْهَا الْجَيْشُ هَذِهِ المسافة الَّتِيْ تتجاوز الثلاثين فرسخاً[1] فِي يوم ونصف لا يقدر عليها إلا الرّجال وأيُّ رجال .

وهُنَاكَ انضم إليه مئات من الجنود الَّذِيْنَ تدربوا عَلَى أيدي مُحَمَّد بن شِيْركُوه .

الْجَمِيْعُ ينتظر أمر السُّلْطَان بالزحف إلى الْقَاهِرَةِ .

وأخيراً وَصَلَ كتابان واحد متوقع من شيركوه والآخر مثيرٌ !!

الأول : نظم جيشك جيدًا ، وكثفوا التدريبات فالانطلاق نَحْوَ مِصْرَ خلال أيام معدودة ، ولا تنسوا وصية أبي بكر رضي الله عَنْهُ عندما سيَّر جيش أسامة بن زيد .

والكتاب الآخر : نحن السُّلْطَان نُوْرُ الدين بن محمود قررنا أَنْ يكون يُوْسُفُ بن أَيُّوب مساعدًا لعمه .

لَمْ يكن قرار تعيين يُوْسُفَ بهذه السّهولة فَقَدْ لاقى نُوْرُ الدين من بعض خاصته من الوزراء معارضة شديدة وآراء عديدة ، بعضهم قَالَ : مازال صغيرًا فابن الثلاثين عاماً لَمْ ينضج بعد ، والبعض الآخر قَالَ : مُحَمَّد بن شِيْركُوه أولى بهذا المنصب ، وأحدهم قَالَ : إن يُوْسُفَ بن أَيُّوب بارع فِي العلوم الشَّرعية ولم تكتمل براعتة فِي العلوم العسكرية بعد ، والبعض ـ وَهُمْ الأكثرية ـ أيد بشدة ، والبعض لما

---

(١) الفرسخ : يساوي ٥ كم .

رأى رغبة نُوْرِ الدين بذلك أيد وفي نفسه حاجة ، ولم يفضَّ نُوْر الدين مجلسه إلا بَعْدَ أَنْ تيقن أَنْ غالبية خاصته وافقت عَلَى المنصب الجديد للفتى يوسف بن أَيُّوبَ .

بَعْدَ أيام قليلة اكتمل تجهيز جيش شِيْركُوه وقامَ نُوْرُ الدين بوداع قواده وجنوده وَبَعْدَ أَنْ سار معهم عدة أميال حَتَّى خرج من ظاهر العمران وقف وودعهم ودعا لَهُمْ بالنصر المؤزر وذكَّرهم بوصية الصديق لجيش أسامة مرة أخرى .

عاد نُوْرُ الدين وحاشيته القريبة إلى مقر قيادتهم إلى قَلْعَةِ دِمَشْقَ المنيعة ، وعاد نَجْمُ الدِّيْنِ أَيُّوبُ أَيْضًا إلى بيته قرب الْجَامِعِ الأُمويّ والمعروف دار العقيقي[1] .

فِي اليوم التَّالِي علم نَجْمُ الدِّيْنِ أَيُّوبُ أَنَّ المؤرخ الكبير العماد الأَصْفَهَانِيّ وَصَلَ مَدِيْنَة دِمَشْقَ منذ يَوْمَيْنِ قادمًا من بغداد وأنهم أعدوا لَهُ مكانًا لائقًا فِي مضافَةِ دارِ الحديثِ النوريةِ ، وأنه اعتبارًا من الغد سيلقي دروسًا فِي الْمَسْجِدِ الأموي ليحثّ الناس عَلَى الجهاد .

لَمْ ينتظر أَيُّوبُ للغد للسلام عَلَى الأَصْفَهَانِيّ فتربطه به صداقة قديمة من أيام تكريتَ ، فهرع للسلام عَلَيْهِ والترحيب به ، كَانَ اللقاء حارًا ولكن العماد سأل أَيُّوبَ :

---

(١) هذا البيت يشغل الآن المكتبة الظاهرية بدمشق ، وسمي بالعقيقي لأن مالكه الأول الشريف العقيق أحد وجهاء دمشق .

ـ ما أخبار يُوْسُفَ ؟

رَدَّ عَلَيْهِ :

ـ لَقَدْ خرج بجيش عَمّهِ شِيْركُوه إلى مِصْرَ وَهُوَ فِي الطَّريق إليها الآن ، ادعُ لَهُ وللمسلمين .

فكر الأَصْفَهَانِيّ برهة ثُمَّ نظر إلى أَيُّوبَ وقال :

ـ لَقَدْ رأيت رؤيًا جميلةً ليلة أمس وأحب أَنْ أحدثك بِهَا يا نَجْمَ الدِّيْنِ .

قَالَ أَيُّوب :

ـ خير إن شاء الله .

رَدَّ العماد الأَصْفَهَانِيّ :

ـ رأيت يُوْسُفَ عَلَى عرش مِصْرَ يجلس عَلَى كرسي الملك ويرسل لكم كَيْ تحضروا عنده وتدخلوا عَلَيْهِ أنت وأمه وإخوته ويقول لكم :

« ادخلوا مِصْرَ إن شاء الله آمنين » .

ثُمَّ نظر الأَصْفَهَانِيّ إلى أَيُّوب وقال لَهُ :

ـ كم من الأولاد عندك يا أَيُّوب ؟

رَدَّ أَيُّوب : أحدَ عشرَ ولدًا .

قَالَ العماد :

ـ أحد عشر كوكباً بإذن الله وأنت الشَّمس وأم يُوْسُفَ القمر .

سر أَيُّوب من رؤيا العماد الأَصْفَهَانِيّ وتبسم ضاحكاً ثُمَّ قَالَ :

ـ ولكن أرجوك ألا تقصص رؤيتك عَلَى إخوتك من حاشية السُّلْطَان نُوْرِ الدين فيكيدون لنا كيدًا .

ضحك الأَصْفَهَانِيّ وضحك أَيُّوب وودعه متمنيًا لَهُ إقامةً جميلةً فِي دِمَشْقَ ومسجدِها الجامع ومدارسها العظيمة .

فِي هَذَا الْوَقْتِ كَانَ شِيْركُوه وَيُوسُفُ ومعهم شَاوَرُ وآلاف الجند فِي منتصف الطَّريق قَدْ قطعوا غزة ورفح ، وذَاتَ ليلة وَبَعْدَ التعب الشديد طلب شِيْركُوه من جيشه نصب الخيام على عجل وإعداد الطَّعام والاستراحة للجنود ، وفي خَيْمَةِ القيادة جلس القادة يتشاورون ويضعون الخطط بمساعدة شَاوَرَ الَّذِيْ يعرف الْبِلادَ أكثر من غيره ، وَلَمَّا خرج شَاوَرُ لقضاء حاجته أسرَّ يُوْسُفُ لعمه حديثًا لَمْ يسمعْهُ إلا أربعةٌ أو خمسةٌ من كبار القادة .

قَالَ يُوْسُفُ :

ـ لَمْ اطمئنّ كَثِيْرًا من شَاوَرَ فالسَّفَر يكشف أخلاق الرّجال !

رَدَّ عَلَيْهِ عَمّه :

ـ ما الَّذِيْ بدا لك منه ؟

قَالَ يُوْسُفُ : أحسست أَنَّهُ طامع فِي حكم مِصْرَ ولا يهمه مصلحة الْبِلادِ ولا العباد !! وإنه كلما حانت صلاة الجماعة يتذرع[1] ويخرج ولا يصلي معنا .

وما أن انتهى يُوْسُفُ من سرِّه حَتَّى أيده بعض القادة وبدأ كُلّ واحد يدلي بما عنده من ملاحظات حَوْلَ شَاوَرَ ، ولكن القائد الحكيم شِيْرْكُوه وخوفًا من حدوث بلبلة أمر الْجَمِيْعَ بالكفِّ عن الخوض بهذا الموضوع .

وأخيرًا وَصَلَ الْجَيْشُ والقائدان إلى مِصْرَ ، وَقَدْ بدتِ الأهرامات كالجبال الشَّامخة ، وأبو الهول كالأسد الرّابض ، وبينما كَانَ الْجَيْشُ يقومُ بنصب خيامه وينزل عتاده استأذن شَاوَرُ بالانصرافِ والذهاب إلى قصر الخليفة الْعَاضِدِ ، وأخبرهم أَنَّ ضرغاماً وجيشه وجيش الصليبين قريبان من هُنَا .

وفي الجيزةِ كانتْ أولى معاركِ جيشِ الْمُسْلِمِيْنَ والصَّليبيينَ ، ففي الصباح الباكر فوجيء جيش شِيْرْكُوه أنَّ قوات ضرغام والصليبيين تحاصرهم من كُلّ جانب وأن قوتهم العسكرية أكثر من جيش المسلمين بكثير ، ما العمل ؟

الوضع فِي غاية السّوء ، فبدأت السّهام والنبال والرّماح تنهال عَلَى معسكر المسلمين من كل حدب وصوبٍ ، وبدأت بعض

---

(١) يتذرع : يتحجج .

الإصابات فِي الجنود ، وبدأت رماح المسلمين ترد عليهم بالمثل ، ولكنْ يبدو أنَّ وضع المسلمين غير مطمئن ، فالصليبيون يحيطون فيهم إحاطة السِّوار بالمعصم ، مَرَّ يومان وثلاثة وشيركوه يجتمع مَع قادته وجنوده للتشاور فِي فك الحصار .

أين أنت يا شَاوَرُ لَقَدْ تركت جيش شيركوه في محنة وآثرت الهروب !!

فكر يُوْسُفُ وفكر... وأخيرًا لمع لَهُ حل غريب ما أَنْ أتى المساء إلا وَقَدْ استقر لَهُ !!

ما أجمل القمر حين يكون بدرًا ، ولكن هَذِهِ الليلة بالرّغم من المحاق فأنت جميل أَيُّهَا القمر أَيْضًا !!

انتظر يُوْسُفُ حَتَّى داهم الظلام كُلّ مكان وتسلل مَع جندي قوي من خيرة جنوده معروف بالشَّجاعة والجرأة ، تسللا إلى معسكر الصَّلِيْبِيِيْنَ وَيُوسُفُ يتلو همساً ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ولم يدر أقالها مئة مرة أَمْ مئتين ، وصار يُوْسُفُ يبحث عَنْ خَيْمَةٍ دون الخيم ، عليها الأبهة والفخامة ، وأخيراً أشار لصديقه عليها ، قطعا أنفاسهما ودخلا إلى قلب الخيمة .

يبدو أنَّ القائد الَّذِيْ يغط فِي نومه قَدْ أخذ الخمر منه مأخذه ، فرائحته فاحت فِي المكان وبسرعة البرق أجهز البطلان عَلَيْهِ فيوسف كتم أنفاسه بقبضة يديه والجندي ألقى به عَلَى ظهره وخرجا من

الخيمة وَيُوسُفُ يتلو ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حاول الصليبي أَنْ يصرخ أو يخلص نفسه ولكن ثلاثة أشياء حالت دون ذَلِكَ واحدة بسببه ، والاثنتين من بطلين تمرسا فِي القتال والشَّجاعة ، وأما ما كانت بسببه فيبدو أنَّ الرّجل قَدْ أكثر من الشَّراب فخارت قواه .

كانت فرحة شِيْركُوه عظيمة فشكر ابن أخيه وصديقه وأعطى أوامره أَنْ يحافظوا عَلَى هَذَا الأسير لاسيما بَعْدَ أَنْ تحققوا من شخصيته .

إِنَّهُ صيد ثمين ، سيكون فك الحصار بسببه ، وستتوقف المناوشات الَّتِيْ أضرت بالمسلمين .

أَرْسَلَ يُوْسُفُ رسالة فِي الصباح الباكر مَع رسوله جاء فِيْهَا ما يلي :

أمير « قَيْسَارِيَّةَ » أسير عندنا إن لَمْ تفكوا الحصار علينا خلال ثلاثة أيام وتنسحبوا من الجيزة فسيكون مصيره القتل لا محالة ، وإن بدأتم بالانسحاب فسيعود إليكم عزيزًا مكرمًا .

يُوْسُفُ بن أَيُّوب

نائب القائد العام لجيش الشَّام

يبدو أَنَّ فترة اليومين كانت طويلة عَلَى الصَّلِيْبِيِيْنَ فعاد الرّد مَع الرّسول ويبدو أَنَّهُ بخط الوزير ضرغام فأحد المتطوعين المصريين أكَّد ذَلِكَ .

جاء فِي الرّد :

« سنتوقف حالاً عَنْ رمي النبال وغداً مَع شروق الشَّمس سنبدأ بالرّحيل ، عَلَى أَنْ تضمنوا سلامة وتسليم زوج ابنتي أمير « قيْسَارِيَّةَ »

ملك الْقُدْسِ

عموري المعظم

فِي اليوم التَّالِي ومع شروق شمس هَذَا اليوم الجميل ، رأى المسلمون بأمِّ أعينهم جحافل الصَّلِيْبِيِيْنَ وَهِيَ تتجه للشمال ، وَلَمَّا اطمأن شِيْركُوه أَنَّ آخرَ خيمةٍ من خيامِهِم قَدْ قُلعت ، أحضر فرسًا قويةً وطلب من أمير « قيْسَارِيَّةَ » أَنْ يمتطيَها ويلحق بركبه .

بَعْدَ هَذَا الانتصارِ العظيم بيومين جاءت الأخبار السّارة وأهمها مقتل الخائن ضرغام فِي الصعيد أثناء انسحابه عَلَى يد مجموعة من أبطال الصعيد فَقَدْ ظن هَؤُلاءِ الأبطال كما ظن غيرهم أَنَّ ضرغامًا قَدْ جمعهمْ لقتال الصَّلِيْبِيِيْنَ لا أَنْ يتحالف معهم ضد المسلمين .

أَمَّا الخبر الهام فأفاد بوصول الصَّلِيْبِيِيْنَ إلى الإسْكَنْدَرِيَّةِ وَهُمْ بانتظار المساندة من جيوش قَدْ تصل خلال أيام إلى شواطئها .

لَمْ ينتظر شِيْركُوه كَثِيْرًا واحتار من أمره ، هَلْ يرجع للقاهرة ويحرر الْعَاضِد من سجنه أَمْ يلاحق الصَّلِيْبِيِيْنَ وينازلهم فِي الإسْكَنْدَرِيَّةِ ؟

وكان الرّأي الَّذِيْ أجمع عَلَيْهِ القادة أَنْ يزحفوا للإسكندرية ويغزوا الفرنجة وجحافلهم قبل أن يتمكنوا من مصرَ .

توجّهَ جيشُ الشَّام وأغارَ عَلَى من تبقى من قلاع الصَّلِيْبِيِيْنَ حَتَّى وَصَلَ إلى مَدِيْنَة الإسْكَنْدَرِيَّةِ وَسُرْعَانَ ما حرّرها ؛ وكانت الفرحة عامرة لأنه لَمْ يبق فِي مِصْرَ منهم إلا المسالمين .

وفي مساءِ أول يومِ جمعةٍ من الانتصار وَبَعْدَ غروبِ الشَّمْسِ بقليلٍ كَانَ يُوْسُفُ مَع عَمّه وكبارِ قادةِ جيشه فِي قَلْعَةِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ يحتفلون بهذه المناسبةِ ، وبينما هم ينتظرون طعامَ العشاءِ إذ بسربٍ كبير من الحمام قادمٍ من الشَّمالِ وَسُرْعَانَ ما حطَّ عَلَى الأبراج وَبَعْدَ قليل جاءه مسؤولُ البريدِ برسالةٍ مدهشةٍ :

ـ أخي يُوْسُفُ :

ـ السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أهنىء عَمَّي شِيْركُوه وجيشه العظيم بفتح الإسْكَنْدَرِيَّةِ وخروج الصَّلِيْبِيِيْنَ مِنْهَا ، وأعرفُ حبّك الشَّديدَ للكرزِ وأعلمُ أَنَّهُ لا يزرعُ عندكم فِي مِصْرَ ، فَقَدْ وَصَلَنَا ليلة الجمعةِ ثلاثةُ صناديقَ من بَعْلَبَكَّ فأرسلتُ لك صندوقًا .

المرسلة : أُختُكَ « فَاطِمَة خاتون »

الزمانُ والمكانُ : فجرَ يومِ الجمعةِ منْ البيمارستان النوري بدِمَشْقَ .

هرع يُوْسُفُ إلى الأبراجِ ليرى الهديةَ المرسلة من أختهِ ، لَمْ يصدِّق ما رأته عيناه ؛ خمْسونَ طيرًا من الحمامِ الزاجلِ أو أكثر يحملُ كُلّ واحدٍ مِنْهَا أربعَ حباتٍ من الكرزِ عُلِّقتْ فِي أرجلها !!

ولمْ يصدِّق أسدُ الدين شِيْركُوه ولا كبارُ قادتِهِ أنَّ الكرز الَّذِيْ وَصَلَ بالجوّ فِي رحلةٍ استغرقتْ نهارًا ينذرُ ببدايةِ الصَّيفِ ، من مطلعِ فجرِهِ وَحَتَّى غيابِ شمسهِ ، لكنّ الَّذِيْ عرفوه أنّ طعمَ الكرز شهيٌّ جدًا .

انسحبت قوات الملك عموري إلى خارج الإسْكَنْدَرِيَّةِ وتحصنت فِي بعض الْقِلاعِ البعيدة والتي تقع عَلَى طريق السّاحل الفلسطيني .

حملت الْحَمَامَةُ فِي فجر هَذَا اليوم خبراً سيئاً :

الوزير شَاوَرُ حجز الخليفة الْعَاضِد فِي قصره ومنعه من الخروج ومنع أياً كَانَ أَنْ يدخل عَلَيْهِ .

اجتمع شِيْركُوه مَع يُوْسُفَ وكبار قادته وتشاوروا فِي الأمر ، ورأوا أَنَّ رجوعهم للقاهرة أفضل من ملاحقة جُنُود عموري الَّذِيْنَ تفرقوا فِي الشَّمال .

■ ■ ■

محاولة اغتيال شِيْركُوه وَيُوسُف

بَعْدَ هَذَا الانتصارِ العظيمِ أخذ أسدُ الدين شِيْركُوه وجيشه طريقهم إلى الْقَاهِرَةِ ، وَلَمَّا علم شَاوَرُ بقدومهم فك الحصار عَنْ قصر الْعَاضِد مقدماً لَهُ التبريرات الكثيرة مِنْهَا أَنَّهُ ألزمه فِي قصره خوفاً عَلَيْهِ من الاغتيال من أحد أعوان ضرغام ، وقبل وصول جيش المسلمين للقاهرة تمنى شيركوه من يوسف وكبار قادته ألا يناقشوا شَاوَر بأي أمر من أمورهم وألا يعاتبوه بهروبه وقت حصار الجيزة .

فرح الخليفة الْعَاضِد بوصول الْجَيْشِ وقائده شِيْركُوه ، وخلع عَلَيْهِ لقب الوزير ، وأصبحَ شِيْركُوه الآمرَ والنّاهي ، كما تَولَّى يُوْسُفُ مهمّاتٍ عديدةً مِنْهَا الإشرافُ عَلَى البريد ، فولعَهُ بالحمام لا يعادله أيّ شيءٍ سوى مقارعةِ الصَّلِيْبِيِيْنَ ، فكَيْفَ لا يحبُّ حماماته ؟

وأما شَاوَر فَقَدْ كاد ينفجر من تصرف الخليفة الخارج من حجزه قَبْلَ أيام، ولكن لا يستطيع أَنْ يبدي إلا الابتسامة الصفراء والموافقة .

اقترح شَاوَر عَلَى الخليفة أَنْ يدعو شِيْركُوه وَيُوسُف وكبار قادته عَلَى وليمة بمناسبة هزيمة جيش عموري وكذلك بمناسبة تنصيب شِيْركُوه وزيرًا .

وافق الخليفةُ عَلَى طلب وزيره معتذرًا عن حضورِ الوليمة ؛ بسبب حالته الضحية الَّتِيْ لا تسمح .

وزعت الدعوات عَلَى الْجَمِيْعِ من مساء يوم الخميس ولا سيما عَلَى شِيْركُوه وَيُوسُف وكبار القادة ومستشاري الوزير الجديد .

قرر شِيْركُوه تلبية الدعوة ظناً منه أَنَّهَا ستكون سببًا فِي تلاحم الْقَادِمِيْنَ من دِمَشْقَ مَع أصحاب الحل والعقد من أهل مِصْرَ ، ولكن حدث أمر جلل فِي غاية الخطورة .

فِي الصباح الباكر من يوم الجمعة وَبَعْدَ شروق الشَّمس بقليل صحا يُوْسُفُ عَلَى جلبة قرب باب بيته ، شابٌّ فِي الثلاثين من عمره يجادل حرس بيته ويقول لَهُمْ :

ـ أريد مقابلة يُوْسُفَ بن أَيُّوب لأمر هام .

الحرس يجادلونه :

ـ ما الأمر الهام الَّذِيْ دعاك للحضور فِي هَذِهِ السّاعة المبكرة .

يرد عليهم :

ـ إِنَّهُ أمر جلل !!

لَمْ ينتظر يُوْسُفُ كَثِيْرًا ، فتح الباب وقال لحراسه :

ـ لَقَدْ أذنت لَهُ بالدُّخول ، دعوه يدخل .

اصطحب يُوْسُفُ ضيفه إلى المجلس وما أَنْ جلس عَلَى الأريكة أمامه حَتَّى قَالَ لَهُ :

ـ ما الأمر الجلل الَّذِيْ عندك يا أخي ؟

قَالَ الشَّاب :

ـ أرجوكم لا تذهبوا اليوم إلى مأدبة شَاوَر !!

رَدَّ يُوْسُفُ مستغربًا :

من أنت ؟ ولمَ تحذرنا من ذَلِكَ ؟

قَالَ الشَّاب :

أنا مُوسَى بن شَاوَر !! أبي سيدس لكم السّمَّ فِي الطَّعام كَيْ يتخلص منكم !!

صَرَخَ يُوْسُفُ :

ـ أحقًا ما تقول ؟

قَالَ مُوسَى :

ـ أقسم لك عَلَى ذَلِكَ .

سأله يُوْسُفُ :

وما الَّذِيْ دعاكَ لذلكَ وأنْتَ ابنُ شَاوَر ؟

رَدَّ مُوسَى : أبي فِي غاية السّوء ، ولا أحب ما يقوم به ، فجشعة فِي السّلطة أعمى قلبه ، لَقَدْ حاول دسَّ السُّم للعاضدِ منذ أيام ، ولم يعلم بالخبر إلا خاصةُ الخاصةِ وأنا منهم ، وَقَدْ تم إسعاف الْعَاضِد من قبل كبير الأطباء بإفراغ ما تناوله بأقصى سرعةٍ ، لكنَّ الطَّبيبَ وخوفًا من والدي أخبرَ الْعَاضِد أَنَّهُ تعرض لاضطرابٍ معويٍّ عارضٍ سبَّبَ لهُ نزلة بردٍ شديدةٍ .

قَالَ يُوْسُفُ :

ـ تعال معي يا مُوسَى لنخبر عَمِّي الوزيرَ شِيْركُوه .

بَعْدَ أَنْ وقف شِيْركُوه عَلَى خطةِ المؤامرةِ وَبَعْدَ مشاوراتٍ عديدةٍ وسريعةٍ تمَّ الاتّفاقُ عَلَى وضع خطةٍ مضادةٍ وَهِيَ أَنْ يذهبَ الْجَمِيْعُ إلى الْوليمة فِي الْوَقْتِ المناسب .

صَلَّى شِيْركُوه وَيُوسُف وكبارُ القادةِ فِي جَامِعِ أحمد بن طولون واسْتمعوا إلى خطبةِ الجمعةِ والَّتي كانت عَنْ عودةِ الأمنِ والأمانِ للقاهرةِ وكافةِ الْبِلادِ بَعْدَ طردِ الصَّلِيْبِيِيْنَ .

بَعْدَ الصَّلاة كَانَ الْجَمِيْعُ فِي قصر شَاوَرَ وفي ضيافته ، مُدَّتْ موائدُ الطَّعام ، شَاوَرُ يجلس أَمَامَ مائدته مَع بعض مساعديه ، وَهُوَ

ينظر بعين خفية إلى مائدة شَاوَرَ وَيُوسُفَ وكبار القادةِ .

قَالَ شَاوَرُ : أَهْلاً وَسَهْلاً تفضلوا عَلَى بركة الله ، سمُّوا بالله .

بدأَ جميعُ منْ فِي المكانِ بتناولِ الطَّعامِ ، شَاوَرُ ينظرُ فِي خلسةٍ إلى مائدةِ ضيوفِهِ ، مدَّ يدهُ وكوَّرَ قبْضَتَهُ بَعْدَ أَنْ ملأَهَا بِما تيسَّر منَ البرغلِ ودسَّها فِي فمهِ ، وتناولَ قبضةً أخرى وَهُوَ ينظرُ إلى ضيوفِهِ بابْتسامةٍ صفراءَ ومرددًا :

ـ أَهْلاً وَسَهْلاً بضيوفِ وزيرِ مِصْرَ .

لَقَدْ كررها كَثِيْرًا ويبدو أَنَّهُ بدأ يكررها بصوتٍ خافتٍ .

فجأةً يقعُ عَلَى صحن الطَّعام ، ويقعُ بعْدَهُ ثلاثةٌ ممن جلسوا عَلَى طبقه .

يصرخُ بعضُ الحاشيةِ :

ـ سيدي الوزير ما أصابَكَ ؟

يأتي آخرونَ ويحملونَهُ ويخرجونَهُ خَارجَ المجلسِ ، لَمْ يبقَ أحدٌ لا من الضيوفِ ولا من الحاشية عَلَى موائد الطَّعام .

رجال شِيْركُوه انتشروا فِي أرجاء الْقَصْرِ ، وسيطروا عَلَى الوضع تماماً ، ينادي منادٍ :

ـ لَقَدْ مَاتَ شَاوَرُ وقواده .

يقول شِيْركُوه بكلِّ ثقةٍ :

ـ منْ حفرَ حفرةً لأخيْهِ وقعَ فِيْهَا .

وَسُرْعَانَ ما انفضَّ المجلسُ وانتهتِ الوليمةُ بأخذِ عيِّناتٍ مِنْ جميعِ الأطباقِ وإشعال النيران فيما تبقى منه .

الوضْعُ فِي قَصْرِ الحكمِ مسيْطرٌ عَلَيْهِ تمامًا ، الخليفةُ الْعَاضِدُ هُوَ الَّذِيْ أقرَّ شِيْركُوه عَلَى وزارته بَلْ أضاف لَهُ مهمات أخرى أَمَّا يُوْسُفُ فَقَدْ ضاعفَ منْ يقظتِهِ وانتباهِهِ خوفًا منِ انْتقامِ رجالِ شَاوَرَ ، ولكن اطمأنَّ كَثِيْرًا فَقَدْ اكتشف أَنَّ الْجَمِيْعَ فرحَ برحيله ، منَ الخليفةِ الْعَاضِدِ إلى طباخي الْقَصْرِ وَحَتَّى إلى الَّذِيْنَ يحملونَ الأطباقَ ويقدمونَها إلى الضيوفِ ولا سيما إلى رئيسهم الدمياطي الَّذِيْ ترقى إلى وظيفة المشرفِ عَلَى المطبخِ الملكيِّ بَعْدَ أَنْ رقَّاه شِيْركُوه نظيرَ خدماته وإخلاصِهِ .

ما أثارَ انتباه يُوْسُفَ بَعْدَ دفنِ شَاوَرَ بساعاتٍ وصول رسالةٍ جاءت بِهَا حَمَامَة إلى قصر شَاوَرَ حملها لَهُ الحراس جاء فِيْهَا ما يلي :

إلى شَاوَرَ الوزيرَ الأولَ بالقاهرةِ :

لَقَدْ وصلتنا رسالتك وساءنا ما يقوم به شِيْركُوه وابن أخيه يُوْسُفُ من التمكنِ فِي الْبِلادِ وخضوعِ الْعَاضِدِ لهُما ، وَقَدْ طلبتُ من قادتي الاستعدادَ لغزوِّ الْقَاهِرَةِ وعَلَيْكَ أَنْ تجهزَ جيشَكَ ليكونَ عَلَى أهبةِ

الاستعدادِ حَتَّى نتخلصَ منْ رجالِ نُوْرِ الدِّينِ وجيشِهِ الشَّاميِّ ، وَقَدْ سرَّنَا ما ستقوم به من دسِّ السّمِّ في طعامِ ضيوفِكَ الأوغادِ .

ملك الْقُدْسِ عموري

أطراف الإسْكَنْدَرِيَّةِ

كاد يُوْسُفُ أَنْ يصعقَ منْ هَذِهِ الرّسالةِ الخطيرةِ ، فكَيْفَ لقائدٍ مصريٍّ مسلمٍ يخونُ بلادَهُ ويتعاونُ مَع الإفرنجِ !!

ذهبَ لعمه شِيْركُوه وأطلعه عَلَى الرّسالة فما كَانَ منهما إلا أَنْ قالا :

ـ لَقَدْ نالَ ما استحقَّه .

ولكن شِيْركُوه أكَّد عَلَى يُوْسُفَ الإسراع فِي تجهيز الْجَيْشِ كَيْ نغزوهم قَبْلَ أَنْ يغزونا .

ثُمَّ أضافَ :

ـ فعَلَيْكَ يا يُوْسُفُ أَنْ تجهزَ عرضًا عسكريًا بَعْدَ غدٍ يجوب شوارعَ الْقَاهِرَةِ .

قَالَ يُوْسُفُ لِمَ ياعمي فالجيشُ فِي معسكرِهِ يتدرَّب كُلّ يوم ؟ .

قَالَ شِيْركُوه :

ـ كَيْ يعلمَ الناسُ وَمَنْ تحدثه نفسُه فِي الخروج علينا أَنَّ للدولة

هيبةً ، وأنَّ رجال نُوْرِ الدين ذوو قوة وشكيمةٍ ، كما أعرف أَنَّ للبيزنطيين والصَّلِيْبيِيْنَ جواسيسَ ورسلاً بيننا فأريد أَنْ يوصلُوا رسالتي لَهُمْ .

بَعْدَ يَوْمَيْنِ كان الاحتفالُ المهيبُ ، الخليفةُ الْعَاضِدُ أولُ الحاضرين عَلَى المنصة وحَوْلَه كبار رجال الدولة .

لَقَدْ بدأ العرضُ العسكريّ بجميع أشكاله :

هَذِهِ فرقة للخيالةِ تمطتي خيولها وترفع أعلامَ النصرِ .

وَهَذَا المنجنيقُ الضخم لا يعجزه جدار أو بُرْجٌ .

وَهَذَا البرج الضخم الَّذِيْ تجره عربات كثيرة هُوَ أحد قطع الأسطول البحري والذي بدأت صناعته قَبْلَ أشهرٍ .

وهذهِ الأسلحةُ الحديثةُ الَّتِيْ وصلت للتو من الشَّام أثارت إعجاب المصريين .

وهؤلاء الجنودُ الأشاوسُ لا يعرفون إلا الجد والجهاد .

وأما هَؤُلاءِ النساء فهنَّ متطوعات من السُّوريات والمصريات يقمْنَ بعلاج الْمَرْضَى وإسعاف الجرحى .

وأما هَؤُلاءِ المثاتُ الَّذِيْنَ ينادون بأعلى صوتهم بلهجة صعيدية عذبة : . . .

- هِيْ يلا هي يلا

الخاين بره ، الخاين بره

راح ضرغام ، راح شَاوَر

مصير الخاين ينزل قبره .

فَهُمْ منْ تبقى من جيش ضرغام بَعْدَ أَنْ أجهزوا عَلَيْهِ وأردوه ، وفروا للالتحاق بأي جيش يقاتل الصَّلِيْبِيِيْنَ .

منظر مهيب أثار دهشة الْجَمِيْع ، المحب والكاره ، العدو والصديق المسلم والكافر .

أحد جواسيس الصَّلِيْبِيِيْنَ جلس يحصي عدد الجنود لَقَدِ التبس عَلَيْهِ الأمر[1] ، هَلْ عدد المشاة ٨٦٥٤ أَمْ ٨٨٥٤ وَلَكِنَّهُ لَمْ يخطىء فِي عدد الفرسان فَقَدْ كانوا بالضبط ٦٩٩٦ ، وأما جيش الشَّام الَّذِيْ وَصَلَ مَع شِيْركُوه فَقَدْ كانوا ٧٨٥٦ مقاتلاً ، ولم يدر الَّذِيْ يحصي هَذِهِ القوة ، كم عدد الجنود الَّذِيْنَ لَمْ يشاركوا فِي العرض والَّذِيْنَ بقوا فِي معسكرات الجيزة .

بَعْدَ هَذَا العرض الكبير فُرِضَ الأمنُ تمامًا ، فلم تعد هُنَاكَ أي مشكلات تعكر شِيْركُوه أو يُوْسُفَ ، وسارت الأمور كما أراد لها

---

(١) التبس عليه الأمر : شكَّ فيه .

شِيْركُوه وَيُوسُف وَحَتَّى الخليفة الْعَاضِد الَّذِيْ لَمْ يكن قَدْ وَصَلَ العشرين من عمره سرَّ كثيرًا .

ولمْ يعكرْ صفوَ القائدينِ وجنودِهما إلا الأخبارُ الواردةُ منْ عدة أماكن ولا سيما من الْقِلاعِ بواسطة الحمام الزاجل :

ـ قام الصليبيونَ بالاستيلاءِ عَلَى بَعْضِ الْقِلاعِ فِي سَاحل فلِسْطينَ أثناءَ خروجهمْ من مِصْرَ إلى بيْتِ المَقْدِسِ .

أَمَّا الحمامُ القادمُ منَ الشَّامِ فأفادَ أَنَّ الصَّلِيْبِيِيْنَ احتلوا المزيدَ من الْبِلادِ فِي أطرافِ بلادِ الشَّامِ .

■ ■ ■

وفاة شِيركُوه والعاضِدِ

فِي غمرةِ الأنباء المتلاحقة من عام (٥٦٤) وَبَعْدَ شهرٍ من العرضِ العسكري المهيبِ يموتُ الوزيرُ أسدُ الدِّيْنِ شِيْركُوه !!

سبحانَ الحي الَّذِيْ لا يموت ، مَاتَ شيركوه وهُوَ في عنفوانِ عطائِهِ وحكمتِهِ لمْ يتجاوزِ السِّتينَ إلا بثلاثِ أعوامٍ لا أكثر ، خاضَ أكثرَ منْ مئةِ معركةٍ مَع الصليبيينَ ، ويكفِي أنَّ اسْمه الَّذِيْ يعني بالعربية « أسد الجبل » كانَ يرعبُ الفرنجة والخونة من العربِ والمسلميْنَ لأنَّه أشدُّ قوةً من الأسود الضاريةِ ومن الليوثِ الكاسرةِ ، وها هوَ يموتُ على فراشِهِ كما يموتُ الْجبناءُ ، بسببِ مرض عارض ألمَّ به ، لم تمهله الذبحة الصدرية إلا أيامًا معدودةً ، بالأمس كان بيننا وها هو الآن تحت الثرى .

حزنَ عَلَيْهِ يُوْسُفُ والجنودُ ، وأهلُ مِصْرَ كلُّهم بما فيهم الخليفة الْعَاضِد فأقاموا له العزاء في البلاد كلها وخيم الحزن على القاهرة

وما حَوْلَها ، وعلى البلاد والقلاع الَّتِيْ وصلها النبأ الحزين .

ولكن هُنَاكَ من فَرِحَ وأقام الاحتفالات لموت شِيْركُوه ، فما أَنْ وَصَلَ خبره للمَمَالِكِ الصَّليبية وقلاعها حَتَّى أقيمت الحفلات ودارت كؤوس الخمر عَلَى المدعوين ، وَحَتَّى الممالك الأوربية امتلأت ساحاتها بالمحتفين[1] ، وكذلك فِي بعض البلدان العربية وفي مناطق محددة منها ، ممن يكرهون شِيْركُوه ، ونور الدين ، والإسلام والمسلمين احتفت برحيل من كَانَ قَدْ أرَّقهم لسنواتٍ طويلةٍ .

بَعْدَ دفن أسد الدين مباشرة هرع القادة والأعيان والوزراء والعلماء إلى دار الإمارة يتقدمهم الشيخ العماد الأصفهاني لتقديم العزاء ولمبايعة يُوْسُفَ بن أَيُّوب في الحال ، فكما قال الأصفهاني قبل الدفن : يجب ألا تترك البلاد بلا أمير أو سلطان حَتَّى لا تفقد هيبتها وَحَتَّى لا تنتشر الفتن .

وهُنَاكَ وفي قصر الإمارة تم تقديم واجب العزاء ومبايعة الملك الناصر أبي المظفر كما أطلقوا عليه وبحضورِ الخليفة الْعَاضِدِ ومباركته .

لم تقتصر المبايعة على الأمراء والأعيان والعلماء ، بل تمت له

---

(١) المحتفون : المحتفلون المبتهجون .

في أول خطبة جمعة في المساجد والجوامع كلها ، ومن الحمامات الْقَادِمَةُ للتَّو من قلعة دِمَشْقَ وأبراجها الأخرى .

استتب الأمر ليوسف بَعْدَ معاناة شديدة مَع الطَّامعين فِي الحكم ، ويبدو أَنَّ الخليفة الْعَاضِدَ الشَّاب الصَّغِيْر أبدى تأييده ليوسف رغم أنفه ، فالقوةُ اليومَ ليوسفَ ، والناسُ أحبت هَذَا القائد الجديد وكرهت من سبقه ، إن كَانَ شَاوَر أو ضرغامًا ، فبدا الفرح والسّرور في القاهرة كلها ، في البيوت والمساجد والأسواق والمدارس والمعسكرات ، وفي المدن الأخرى القريبة من القاهرة أو البعيدة عنها .

ومرت أشهر وسنونٌ قليلة والقاهرة تتطور وتتقدم للأحسن ولا سيما في مدارسها ومعسكراتها .

ولكن يبدو أَنَّ تطورات سريعة حسمت الأمور !

* * *

اليوم هُوَ يوم الاثنين الحادي عشر من محرم من عام (٥٦٧) ، بعض الناس صائم لمناسبة نجاة مُوسَى من فرعون وَبَعْضُهُمْ صام اليومين السّابقين ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يهتمَّ بأمر مُوسَى ونجاته بَلْ عناه مناسبة كانت تُدَقُّ لها الطُّبول وتقام لها مجالس العزاء والبكاء والنحيب من قبل وَلَكِنَّهَا منذ بضع سنين صارت تقام بالسّر ؛ لِأَنَّ

الوزير القوي يُوْسُفَ منع ذَلِكَ ، لكن قصر الخليفة اليوم عاد إليه البكاء والنحيب ، هَلْ سمح الوزير القوي يُوْسُفُ بعودة مراسم العزاء لقصر الخليفة كما كانت من قبل أَمْ ماذا ؟

لَقَدْ مَاتَ الْعَاضِدُ هَذَا الشَّاب الوسيم الطَّيب الخلوق الَّذِيْ لَمْ يسِيء لأحدٍ لا من أهل قصره أو من وزرائه وكان شعاره « مَع الخيل يا شقرة » ، مَاتَ الْعَاضِدُ عَنْ واحد وعشرين عاماً فِي ريعان شبابه .

وهل موته فِي هَذَا اليوم بالتحديد من عاشوراء كانت بالنسبة لأتباعه ومحبيه تلاحماً مَع شهيد كربلاء ، أَمْ كانت بالنسبة ليوسف وصحبه كنجاة مُوسَى من فرعون ؟

لَمْ يكن يُوْسُفُ يكره الْعَاضِد بَلْ كَانَ يشفق عَلَيْهِ ولا سيما بَعْدَ مرضه ، وَحَتَّى أَنَّهُ رفض أمرًا من نُوْرِ الدين بالدعاء للخليفة العباسي فِي بغداد المستضيء بالله بدلاً من الدعاء للعاضد ، فالرّجل مريض ولن يزيدهُ الدعاءُ للخليفة العباسي إلاَّ همًا وغمًا .

مَاتَ الْعَاضِدُ ، ولم يفرح يُوْسُفُ ، وفي الْوَقْتِ نفسه لَمْ يحزن كَثِيْرًا ، وقال : كُلّ نفس ذائقة الموت ، وأمر بالكف عن العويل والبكاء والإسراع فِي تغسيله وتكفينه ودفنه .

علم يُوْسُفُ أَنَّ الْقَصْرَ الكبير مليء بالمجوهرات والتحف ولم يبقَ من أقارب الْعَاضِدِ إلا بضع نساء ورجلٌ عجوزٌ شقيقُ جَدُّ الْعَاضِدِ أصابه العمى فصار من سَقَطِ المتاع .

أقام له سرادق العزاء بما يليق بخليفة لم يرَ من حكمه القصير إلا مشكلات داهمته بالرغم منه ، وفي آخر يوم من العزاء قَالَ العجوزُ الأعمى ليوسفَ :

ـ سبحان الله يا ابن أَيُّوب لَقَدْ انتهت دولتنا بَعْدَ أكثر من مئتي عام وكنا عَلَى يقين بأن الْعَاضِدَ آخر الخلفاء !!

قَالَ يُوْسُفُ :

ـ وكَيْفَ عرفتم ؟

قَالَ الشَّيْخ الضرير :

عندما بدأت دولتنا فِي الْقَاهِرَةِ طلب معدٌّ بنُ إسماعيل الخليفة الأول من أهل العلم والمعرفة اختيار عشرة ألقابٍ للخلفاءِ ، فكتبوها ووضعوها فِي أوراق بعد أن طووها ، وفتحوها : فالورقة الأولى وَقَدْ حملت اسم المعز لدين الله ، والثانية العزيز بالله ، والثالثة الحاكم بأمر الله ، وأما الأخيرة فكانت تحمل اسم الْعَاضِدِ ، فكلٌّ من يعرف الحقيقة من عائلتنا كَانَ متشائمًا من الْعَاضِدِ ويحسُّ في قرارة نفسه أنَّ دولتنا ستزول بموته .

تعجب يُوْسُفُ من كلام الشَّيْخ الضرير وتناقشا كَثِيْرًا واتفقا عَلَى أَنْ ينقل من تبقى من أقارب الْعَاضِدِ إلى قصر صغير يليق بهم وأن يبقى معهم عددٌ معقولٌ من الخدمِ والحشمِ ، والباقي يسرَّح ، وأما المجوهرات والتحف فستباع كلها !!

صاح الشَّيْخ :

ـ ولمَ أَيُّهَا الوزير ؟

رَدَّ عَلَيْهِ :

ـ سيقام فِي هَذَا المكان مشفًى كبيرٌ ، والمال الَّذِيْ سنجنيه من بيع التحف والهدايا سنشتري به تجهيزات المشفى وأدواته وعقاقيره .

انفضَّ العزاء بالاتفاق مَع الشَّيْخِ الضرير الحكيم .

في الجمعة الأولى بَعْدَ وفاته ومن مسجد أحمد بن طولون والأزهر ومساجد مِصْرَ كلها كَانَ الدعاء للخليفة العباسي المستضيء بالله وَلَمَّا وَصَلَ الأمر لنور الدين بالشَّام سرَّ سرورًا عظيمًا .

عندها أصبح يُوْسُفُ هُوَ الحاكم الفعلي لمصرَ كلها وأنَّ المسؤولية صارت كبيرة ، سرعان ما جمع قادته مَع العلماء والشيوخِ مستشيرًا لَهُمْ فكان الرّأيُ بالإجماع مساعدةَ الملك الناصر يُوْسُفَ بن أَيُّوب ، والضرب بيد من حديد لكل من يفكر فِي تقويض الدولة الأيوبيَّة الفتية .

وهكذا ارتدع الطَّامعون الَّذِيْنَ ظنوا أَنَّ الشَّاب يُوْسُفَ بَعْدَ موت عَمّه والعاضد سيضطرب كَثِيْرًا وَقَدْ يفقد ملكه ، ولكن محبة الناس لَهُ ، وقوة جنوده جعلته ملكًا للبلادِ بلا منازع .

■ ■ ■

معركة دمياط

وَبَعْدَ أيام جاءتِ الأخبارُ بما لَمْ يكن فِي الحسبان : حملاتٌ صليبيةٌ كبيرةٌ قادمةٌ إلى مِصْرَ تقتربُ من ساحلِ البحرِ ظنًا مِنهُم أنَّ البلادَ أضحتْ دونَ قائدٍ يلاحقُ فلولَهم ويقتحمُ قلاعَهم !

ولكنْ تفكيرُهم الخبيثُ باءَ بالفشل الذريع ، فيبدو أَنَّ التقارير الَّتِيْ أعدها الجواسيس لَمْ تصل بعد أو أَنَّهَا وصلت واستهزؤوا بِهَا .

سُرْعانَ ما عزز يُوْسُفُ جيشَه بالعتادِ والسّلاحِ وفتحَ بابَ التَّطوع لكلِّ من أراد القتال ، فصار أغلب جيشي ضرغام وشاور تَحْتَ قيادتهِ .

وَبَعْدَ أن اطمأنَّ من جيشه العرمرم[1] أَرْسَلَ رسالةً عَنْ طريقِ حمامتهِ الزاجلةِ لنُورِ الدين ليأخذَ الإذنَ مِنهُ فِي تسييرِ حملةٍ كبيرةٍ لصدِّ الصَّلِيْبِيِّيْنَ الْقَادِمِيْنَ إلى مِصْرَ وجاء الرّد سريعاً :

---

(١) الجيش العرمرم : الجيش الكبير .

ـ أبشرْ يا صَلاَح الدِّيْنِ يا ابنَ أيُّوبَ ، سرْ عَلَى بركةِ الله ، لَقَدْ سيّرنا جيشًا آخرَ بقيادة أبيك أَيُّوب يساعده مُحَمَّد بن شِيْركُوه لمقارعة الصَّلِيْبِيِيْنَ فِي قلاعهم المتبقية فِي الشَّامِ لتخفيفِ الضغطِ عَنْ جيشِكِ .

المرسلُ : السُّلْطَان نورُ الدينِ الشَّهيد

المكان : قَلْعَةُ دِمَشْقَ .

سُرَّ يُوْسُفُ بهذِهِ الرّسالةِ كسرورِهِ باللقبِ الجديدِ الَّذِيْ حملتْهُ الرّسالةَ « صَلاَح الدِّيْنِ » ، فما أجملَ هَذَا اللقب فلَهُ دلالةٌ كبيرةٌ عند يُوْسُفَ ومنْ يحبونَهُ ، فهُوَ لا يقلُّ عَنْ ألقابِ : نُوْرِ الدِّيْنِ وعِمَاد الدِّيْنِ وأسد الدِّيْنِ ونجم الدِّيْنِ ، والملك الناصر الَّذِيْ أطلقه عَلَيْهِ المصريونَ .

أَمَّا سروره بتسيير حملات لمقارعة الصَّلِيْبِيِيْنَ فِي طرابلس الشَّام فَهِيَ فكرة راودته من قبلُ ، وتردد أَنْ يطلبها من نُوْرِ الدين خشية أَنْ يُقال عَنْهُ أَنَّهُ يخشى جيش عمورِي وصحبه من الصَّلِيْبِيِيْنَ الَّذِيْنَ ينتظرون صَلِيْبِيِيْنَ آخرين من طرابلس وأوروبا ، إنها خطة عسكرية تكتيكية لا يفقهها إلا الأبطال .

سارَ صَلاَح الدِّيْنِ بجيشٍ كبيرٍ قاصدًا شاطىءَ البحرِ شمالَ مِصْرَ وكَمنَ مَع جيشهِ قربَ دمياطَ منتظرًا وصولَ الصَّلِيْبِيِيْنَ ، وَبَعْدَ أيام وصلتْ سفنُهم إلى منطقةِ رأسِ البرِّ عَلَى ساحلِ البحرِ الأبيضِ ،

بحثوا عَنْ مجرى النيلِ كَيْ يبحروا منه إلى الْقَاهِرَةِ فوجدُوه ، وقبل أَنْ يصِلوا إلى دمياطَ وعَلَى بعدِ ١٥ كيلاً منْ شاطىءِ البحرِ توقفتْ سفنهمْ فجأةً ، وهُنَاكَ كانتِ المفاجأةُ الَّتِيْ لَمْ تكنْ بحسبانِهم ، فَقَدْ أمر صَلاَح الدِّيْنِ أو الملكُ النَّاصرُ بوضعِ سلاسلَ حديديةٍ ثقيلةٍ تقطعُ نهر النيلِ ، نزل جُنُودُ الصَّلِيْبِيِّيْنَ لنزعِ هَذِهِ السّلاسلِ وَلَكِنَّهُمْ فوجئوا بالسّهامِ تنطلقُ نحوَهم من كُلّ جانبٍ ، ففي ظلمةِ الليلِ تسللتْ جنودهمْ إلى جزيرةٍ قريبةٍ مِنهُم ، وعَلَى عجلٍ أقاموا فِيْهَا معسكرًا كبيرًا ظنًا أَنَّهُمْ سيكونون بمنأى[1] عَنْ سهامِ صَلاَح الدِّيْنِ وجنودِهِ .

لَمْ يتمكنوا منْ متابعةِ حملتهم برًا أو نهرًا وظلوا محاصرينَ خمسينَ يوماً حَتَّى كادتْ مؤونتهمْ تنفدُ .

وذَاتَ يومٍ مباركٍ أنهى صَلاَح الدِّيْنِ خطبةَ الجمعةِ فِي معسكرِ المُسْلِمِيْنَ داعيًا الله :

« اللَّهُمَّ شتت شمل الصَّلِيْبِيِّيْنَ » ، « اللَّهُمَّ أهلكهمْ كما أهلكتَ فرعونَ وجنودَه » ، « اللَّهُمَّ بددْ جنودَهمْ كمَا بددتَ المشركينَ يومَ الأحزابِ[2] » .

ضجَّ المسجدُ بقولِ : آمينَ ، أمينَ ، آمينَ يَا ربَّ العالمين .

وما أن انتهتِ الصَّلاة حَتَّى تلبدتِ السّماء بالغيومِ ، وحُجبتِ

---

(١) النأي : البعد .

(٢) يوم الأحزاب : غزوة الخندق .

الشَّمسَ ، واشتدّت الرّياحُ وهطلتْ أمطارٌ غزيرة لَمْ يُرَ مثلها فِي دمياطَ وما حَوْلَها ، حولتِ الْمُعَسْكَر الصليبي إلى مستنقعٍ كبير اتصل بماء النيل ، وعَلَى عجلٍ صدرتْ أوامر عاجلةٌ للصَّلِيْبِيينَ :

ـ كلُّ الجنودِ إلى سفنهم ، علينا أَنْ نرجعَ منْ حَيْثُ أتينا ، لا طاقةَ لنا اليومَ بصَلاَحِ الدِّيْنِ وجنودِهِ .

وفي الحالِ وَبَعْدَ أنْ لمْلمَ الجنودُ ما استطاعوا حملَه تَحْتَ الأمطارِ الَّتِيْ لَمْ تتوقفْ بعدُ ؛ أبحرَ الأسطولُ البيزنطيُّ راجعًا من حَيْثُ أتى ، وَلَمَّا سارتْ بهم المراكبُ عدةَ أميالٍ هبَّتْ عاصفةٌ عنيفةٌ ، لَمْ يتمكنِ البحارةُ من السّيطرة عَلَى سفنهم فغرقَ معظمُهم .

ابتهجَ صَلاَح الدِّيْنِ وجنوده بما رأوه بأم أعينهم وسجدُوا لله تعالى سجودَ الشُّكرِ ، وَبَعْدَ أَنْ تيقنَ أنَّ الأسماكَ قدِ ابْتهجتْ بالولائمِ الدسمةِ لاحقَ جنودُهُ فلولَ مَنْ بقي مِنهُم عَلَى أرضِ البرّ ، ودخلَ فلِسْطينَ من ناحيةِ غزةَ وقضى عَلَى كُلّ قلاعهم وإماراتهم هُنَاكَ ، فهربَ الكثيرُ مِنهُم إلى عَكَّا وبيْتِ المَقْدِسِ حَيْثُ القيادةُ الكبيرةُ هُنَاكَ تجعلهم في منأى عنْ سهامِ المسلمينَ .

رَجِعَ البطلُ للقاهرةِ منتصرًا ؛ أَرْسَلَ مَع حمامتهِ الزاجلةِ رسالةً لنُور الدِّيْنِ يبشّره فِيْهَا بالنَّصرِ ويطلب أَنْ يسمحَ لوَالِدِهِ أيُّوبَ بالانتقالِ للقاهرةِ كَيْ يساعدَه فِي تسييرِ الأمورِ وجاءَ الرّدُّ سريعًا :

ـ أبشرْ فوالدكم فِي الطَّريقِ إليكم .

وَبَعْدَ أيام معدودة وصلتِ الأسرةُ من دِمَشْقَ : الأم والأب نَجْم الدِّيْنِ والإخوة إلا فاطمة ، دخلوا عَلَيْهِ فِي ملكه فهالهم ما رأوا ، قصرٌ منيف يتربع في وسطه الملك الناصر وحواليه الخدم والحشم والمستشاورن والوزراء والقواد ، عندها ومن هالة ما رأوه سجد الْجَمِيْع لله شاكرين .

ترك يُوْسُفُ مجلسه وهرع نحوهم مقبِّلاً يديْ أبويْه ومعانقًا إخوتَه ، وأصرَّ أَنْ يجلس والداه عَلَى مجلسهِ فهُو عظيمٌ ويتسع لاثنينِ ، وأمَّا هُوَ فجلس فِي منتصف إخوته الَّذِيْنَ تحلقوا حَوْلَ كرسي الوالدينِ المَلِكَيْنِ .

سألَ عن ستِّ الشّام فاطمةَ فقالوا له : بقيت في دِمَشْقَ تدير مدارسها ومشاريعها العديدة وتعتني بصغيرها حُسَام الدِّيْنِ .

وقف أَيُّوب قائلاً :

ـ الحمد لله ، لَقَدْ تحققت رؤية العماد الأَصْفَهَانِيّ ، لَقَدْ أكرمك الله يا يُوْسُفُ وجعلك تملك الْبِلادَ .

عندها تذكر صَلاَح الدِّيْنِ أستاذه الأَصْفَهَانِيّ فقال لَهُ :

ـ ما أخبار الشَّيْخِ الأَصْفَهَانِيّ ؟ وما قصة الرّؤيا هَذِهِ ؟

سرعان ما قصّ أَيُّوب عَلَى يُوْسُفَ وأمه وإخوته الرّؤيا الَّتِيْ تحققت .

انفضَّ اللقاء الجميل بَعْدَ أَنْ كتب يُوْسُفُ بخطهِ الجميلِ رسالةً للسلطانِ نُوْرِ الدين جاء فِيْهَا :

ـ إلى سلطاننا العادل نُوْرِ الدين الشَّهيد

أشكرُ صنيعَكم في السَّماحِ لوالديَّ للالتحاق بي بالقاهرة ، وأَتَمَنَّى أَنْ تسمح للمؤرخِ الوزيرِ العمادِ الأَصْفَهَانِيّ بالانتقال عندنا فنحن بحاجة لَهُ ولأمثاله حَتَّى ننشرَ العلمَ الصحيحَ ، ونصححَ ما قام به العبيديون[1] .

المرسل : يُوْسُفُ بن أَيُّوب

القاهرة/ دار الحكم / ٢٧ رجب الخير (٥٦٦) من هجرة الرّسول

ثُمَّ قَالَ لوزيرِهِ :

ـ أرسلوا فِي الحالِ هَذِهِ الرّسالةَ لقلعةِ دِمَشْقَ .

كان يُوْسُفُ قدِ اتّخذ لأهلهِ بيتًا كبيرًا يتسع لَهُمْ ويليق بهم ، قريبًا من بيته فانتقلوا إليه في الحالِ ، وهُنَاكَ فِي قصرِ الحكمِ بالقاهرةِ صارَ الأبُ والابنُ والإخوةُ يتابعون كُلّ ما يهمّ مِصْرَ وتطورها ، فبالرّغمِ من الاهتمامِ بالجيشِ والاستعدادِ لما هُوَ آتٍ ؛ وضعوا الخطط لفتح

---

(١) العبيديون : الدولة العبيدية نسبة لمؤسسها الخليفة الأول عبيد الله المهدي وهي الدولة الفاطمية نفسها .

المدارس والمستشفيات وغيرها من دور الحضارة ، وكانوا بانتظار العماد الأَصْفَهَانِيّ بفارغ الصبر .

وفي غضون عشرة أيامٍ وصل الأَصْفَهَانِيّ إلى الْقَاهِرَةِ ، وأحماله وكتبه سبقته لجامعِ أحمدَ بنِ طولون وَقَدْ أعدَّ لَهُ مكانًا يليقُ بِهِ ، وما كادت صلاة العشاء أَنْ تنتهي إلا وفوجيء بصَلاَح الدِّيْنِ يقرع بابه ، لَمْ تُصَدِّق عينا الأَصْفَهَانِيّ ما رأى وَبَعْدَ أَنْ عانقه قَالَ :

أنا آتيك يا صَلاَح الدِّيْنِ ، لَقَدْ أرسلتُ كتابًا فور وصولي أطلب موعدًا للسّلام عَلَيْكُم وعلى نَجْم الدِّيْنِ وخالك شهاب الدين .

رَدَّ صَلاَح الدِّيْنِ : لَقَدْ وَصَلَ كتابك وما أَنْ قرأته حَتَّى جئتك بنفسي ، فلا يليق بأستاذي أَنْ يطلب موعداً للقاء تلميذ مثلي .

رَدَّ الأَصْفَهَانِيّ : ولكن أنتَ ملكُ الْبِلادِ وكبيرُها !!

رَدَّ صَلاَح الدِّيْنِ : لا عَلَيْكَ ، أنا الَّذِيْ يجبُ أَنْ يأخذَ موعدًا عند زيارتك .

لَمْ يقل الأَصْفَهَانِيّ إلا :

ـ من تواضع لله رفعه ، اللَّهمَّ أعز يُوْسُفَ وأيوب ، واجعلْ هزيمةَ الصَّلِيْبِيِّيْنَ عَلَى أيديهم .

لَمْ يطلِ التَّرحيب كَثِيْرًا سرعان ما شرح صَلاَحُ الدِّيْنِ ما يرغب فعله من نشر التَّعليم والفقه والعلوم ، فَقَدْ كَانَ يعلمُ أَنَّ القوةَ

العسكريةَ وحدَها لا تكفي ، بَلْ يجب إعداد جيل متعلم متسلح بالفكر والعقيدةِ حَتَّى لا يكونَ منْهم فِي المستقبلِ مثلَ ضرغامٍ وشاورَ وَحَتَّى مِثْلَ الْعَاضِدِ .

واتفق الاثنان عَلَى الشّروع مباشرة من الغدِ .

بدأَ المشروعُ الكبيرُ وبدأَ العلمُ ينتشرُ فِي المساجدِ والمدارِسِ ، وبدأَ العلماءُ يتوافدونَ عَلَى الْقَاهِرَةِ ورجعِتْ للأزهرِ مكانَتُهُ الكبيرةُ ، ولمْ ينسوا رعايةَ الْفُقَرَاءِ والمحتاجينَ والمعوزين وطلابَ العلمِ ، وبدأَ الناسُ يشعرونَ بالتَّغييرِ فِي كل شيءٍ ؛ في أخلاقِ الناسِ ومعاملتِهم الحسنةِ ، وفي علوِّ همتهم وحبهم للعمل والنشاطِ ، وكثيرا ما كانوا يقولون : « الناس عَلَى دين ملوكهم » .

وأَمَّا صَلاَحُ الدِّيْنِ وأيوبُ ومحمدُ بنُ شِيْركُوه فَقَدْ تسلَّموا أمورَ الْجَيْشِ والاستعداد والتَّدريب إلا أَنَّ السُّلْطَان الجديد لَمْ يترك هوايته المفضلة فكلّ يوم يصعد لِلْقَلْعَةِ الَّتِيْ رمَّمها من جديدٍ واتَّخذها مسكنًا لَهُ ولأهلِهِ ، يصعدُ وينتظرُ ما يحمله البريدُ منْ رسائلَ من دِمَشْقَ وحَلَبَ ومكة والمدينة وعَكَّا ، وأنطاكية .

وكثيراً ما كان يتجه للقبلةِ قائلاً :

ـ كم أنا مشتاق لأداء فريضة الحجِّ في مكةَ ، والسَّلام على رسولِ اللهِ وصاحبيهِ في المدينةِ المنورةِ ، وكثيرًا ما كان يدعو في صلاته وقيامِهِ أنْ ييسر الله له أداء الحج ، فالحج لمن استطاع إليه

سبيلاً ، والسّلطان لا يستطيعُ ؛ لا منْ قلةِ المالِ أوِ الزَّادِ[1] بل لأن الحج قَدْ يستغرق ستين يومًا وأكثر وهو لا يستطيعُ أنْ يغيبَ عنِ الثّغورِ والقلاعِ والقاهرةِ ودمشقَ كلَّ هذه المدة .

ذَاتَ ليلة حملت لَهُ الْحَمَامَةُ الْقَادِمَةُ من بلادِ الفرنجةِ رسالةً هامةً :

ـ لَمْ تتوقفِ الحملاتُ الصليبيةُ منَ القدومِ إلى السَّاحلِ الفلسْطيني ، فبَعْدَ أَنْ وصلتْ لأوروبا أخبارُ هزيمةِ جيشِ دمياط وطرابلسَ ، قامَ الرّهبانُ والقساوسةُ[2] هُنَاكَ بلبس السَّوادِ والطَّوافِ عَلَى المدنِ والْقُرَى رافعينَ لوحاتٍ رسموا فِيْهَا رجلاً أشقرَ يضربُه رجلٌ أسمرُ ونثروا الدماءَ عَلَيْهَا وصاروا يصرخون : هَذَا المسيحُ يضربه مُحَمَّد وَقَدْ جرحهُ وقتلهُ !! .

إنَّهم يحرضون ويضحكون على السّذج من الفقراء والمساكين وَهُمْ يعرفون بقرارة أنفسهم أَنَّهُمْ كاذبون ولكنه الحقد الأسود على الإسلام والمسلمين .

وحمامةٌ أخرى أفادتْ رسالتُها بما يلي :

ـ نجحتْ حملاتُهم التَّحريضيةُ وجمعُوا الجنودَ والأموالَ الطَّائلةَ وأعدُّوا حملاتٍ جديدةً للانتقام من نُوْرِ الدِّيْنِ وصَلاَح الدِّيْنِ والمُسْلِمِيْنَ .

---

(١) الزاد : كل ما يتزود به الإنسان وخاصة الطعام والشراب .

(٢) الرهبانُ والقساوسةُ : مراتب دينية عند النصارى . .

وأَمَّا الْحَمَامَةُ الْقَادِمَةُ من عَكَّا فاسْتاء السّلطانُ مِنْهَا كَثِيْرًا :

ـ وصلتْ جيوشُ الصَّلِيْبِيِيْنَ إلى شواطىءِ عَكَّا ويافا وَاتَّجَهَ الكثيرُ مِنهُم لتعزيزِ وجودهم فِي الْقُدْسِ الشَّريفِ ، وفي الْقِلاعِ القريبةِ مِنَّا ، حَتَّى قويتْ شوكتهمْ من جديدٍ .

لَمْ يهدأْ لصَلاَح الدِّيْنِ بالٌ بَعْدَ أَنْ تواترت[1] أخبارُ الحملاتِ الرّهيبةِ ، فعرفَ أَنَّ المهمةَ صعبة ، ولكِنَّهَا حاسمة ، نكون أوْ لا نكونُ ، لِذَا أعدّ العدةَ بمساعدةِ وَالِدِهِ وصارَ يتنقلُ بَيْنَ الْقَاهِرَةِ ودِمَشْقَ يوحدُ الجيوش استعدادًا لمعركةٍ وشيكةٍ فاصلةٍ ربما تكون قريبة أو بعيدة ولكنَّ صَلاَح الدِّيْنِ تمنى أَنْ تكون بعيدة ريثما تظهر طلائع الجيل الجديد الَّذِيْ بدأ فِي إعدادهِ .

■ ■ ■

(١) تواترت : تلاحقت تباعاً وكثرت .

وفاة نَجم الدِّيْنِ ٥٦٨ هـ

لَمْ يهنأ كَثِيْرًا وَهُوَ يهيىءُ الْجَيْشَ ، فَقَدْ جاءته الأخبار وَهُوَ فِي طريقِ عودتِهِ منْ دِمَشْقَ بَعْدَ لقاءِ السُّلْطَانِ نُوْرِ الدّينِ أَنَّ والدَهُ أَيُّوبَ وخلال تدرُّبه فِي الْمُعَسْكَرِ القريبِ من الجيزةِ ، حاولَ أَنْ يمتطيَ فرس يُوْسُفَ ، فلمَّا امتطاها عرفتْ أَنَّ هَذَا أول رجل غريب يمتطي ظَهرهَا ، فاستشاطتْ غضبًا وهاجتْ وماجتْ وأخذتْ تعدو وتعدو كَأَنَ مسًّا قَدْ أصابها ، ولم تتركه إلا وَقَدْ أسقطته أرضاً وَقَدْ غاب عن الوعي .

أحضروا لهُ الأطباء وأعطوه الإسعافات الأولية ونقلوه للبيمارستان الصلاحي الَّذِيْ كَانَ قصْر الحكم للفَاطِمِيِّينَ من قبلُ ، ولكن لا فائدة ، فيبدو أَنَّ حالته قَدْ ساءَتْ .

فما أن وَصَلَ صَلاَح الدِّيْنِ للقاهرة حَتَّى سارعَ يعُودُ والدَهِ إلى حيثُ يرقدُ ، وَمَا أَنْ رأى أيوبُ ابنَه حَتَّى ساءت حاله أكثرَ ، وانتكس كثيرًا ، وخارت قواهُ .

استشارَ صَلاَحُ الدِّيْنِ جميعَ الأطباءِ فكانَ جوابُهمْ :

ـ أَنَّهُ في حالة يرثى لها ولا بدَّ من معجزة كَيْ يتعافى .

مَرَّ يوم ويومان وثلاثةٌ ، وَلَمَّا رأى الابنُ ألا فائدة ترجى من بقاءِ أبيهِ في المشفى ، أعطى الأوامر بنقلهِ لبيتهِ فِي الْقَلْعَة .

ترك كلَّ أعمالهِ وأقامَ فِي غرفتهِ أيامًا يطبِّبُهُ ، ويخفِّفُ الآلام عَنْهُ ، ولكن إرادة الله فوق كُلِّ شيء فلكلِّ أجلٍ كتابٌ .

وأخيرًا ها هُوَ البطل يودِّع الدُّنيا تاركًا أحدَ عشرَ بطلاً ، ووصيةً رآها صَلاَح الدِّيْنِ قرب سريرهِ فقرأها في دهشةٍ ، ثُمَّ دسها فِي جيبهِ .

وها هِيَ الْقَاهِرَة تودع والد الملك الناصر صَلاَح الدِّيْنِ ويصلي عَلَيْهِ الشَّيْخُ الأستاذُ العماد الأَصْفَهَانِيّ ويشاركُ فِي الصَّلاة الوزراءُ والقادةُ والأعيانُ ثُمَّ يحملُ عَلَى الأكتافِ إلى مثواهُ بالقرب من أخيه شِيْركُوه الَّذِيْ سبقه بأربعة أعوامٍ .

وها هِيَ الشَّاهدة قَدْ وضعت عَلَى قبره تقول :

هُنَا يرقدُ الملكُ الأفضلُ نَجْمُ الدِّيْنِ أَيُّوبُ بنُ شاذي بنُ مروانَ أبو الشُّكرِ توفي فِي (٢٨/ ١٢/ ٥٦٨هـ) .

وأَمَّا الشَّاهدة الَّتِيْ تلاصقه فكُتِبَ عَلَيها :

هُنَا يرقدُ أسد الدين شِيْركُوه بن شاذي بن مروان توفي فِي (١٢/ ٦/ ٥٦٤هـ) من هجرة الرسول عليهِ أفضل الصّلاة والسّلام .

احتار صَلاَح الدِّيْنِ أينَ يكونُ العزاءُ ؛ هَلْ فِي بيتِهِ بِالْقَلْعَةِ أَمْ فِي الْمُعَسْكَرِ الَّذِيْ مَاتَ فِيْهِ ؟

وَبَعْدَ مشاوراتٍ مَع إخوته وأبناء عَمّه استقر الرّأي أن يكون العزاءُ فِي جَامِعِ أحمد بن طولون وذلك لتوسطه الْقَاهِرَة حَتَّى لا يشقّ عَلَى المعزينَ .

وَسُرْعَانَ ما أَرْسَلَ رسالة لأخته فَاطِمَة بالشَّام بواسطة حمامته الوادعةِ يخبرها بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ فِي وفاةِ الوالدِ الَّذِيْ نذرَ نفسَهُ للجهادِ ، وأخبرَهَا بأنَّهُ سيشَاورَهَا فِي أمرِ وصيتِهِ ريثمَا يحضر لِدِمَشْقَ ، وتمنّى عليها أَنْ تأتيَ مَع ابْنها حُسَامٍ للالتحاقِ بزوجِهَا وإخوتِهَا .

فِي اليوم التَّالِي وصلت رسائل التَّعزية من الْقِلاعِ القريبة والتي يرابط بِهَا الجنود استعدادًا للمعارك الْقَادِمَةِ ولكن تعزية السُّلْطَان نُوْرِ الدين وصلت متأخرة فيبدو أَنَّ الهواءَ كَانَ يهبُّ بعكسِ سيرِ الحمامِ الزاجلِ .

حزن صَلاَح الدِّيْنِ عَلَيْهِ كَثِيْرًا كما حزن عَلَيْهِ المصريون ، ودعا لأبيه وعمه بالرّحمة والمغفرة .

وَلَمَّا عاد لِلْمُعَسْكَرِ ، ركضت الفرس نحوه فأعرض عَنْهَا[1] وبالرّغم من حبّه لها قرر ألا يراها بعد ذلك اليومِ ، وَلَمَّا سألوه ماذا نفعل بِهَا قَالَ :

ـ أطلقوها تسرحْ بأرضِ اللهِ الواسعةِ .

فتحوا لها باب الْمُعَسْكَرِ وأطلقوها ، وَلَكِنَّهُمْ وجدوها بَعْدَ ثلاثة أيام قَدْ نفقت[2] عَلَى باب الْمُعَسْكَرِ الغربيِّ .

لا شكَّ أنها أي الفرس علمت أن الَّذِيْ أودت به هو والد السُّلطان الَّذِيْ أعرضَ عنها ، ولم تطق فراق السّلطان فامتنعت عن الطَّعام والشّراب حَتَّى نهايتها ، إنَّهُ وفاء ما بعده وفاء ، وإخلاص يعجز البشر عن الإتيان بمثله .

ولمْ يتركْ صلاح منصب الوالد شاغرًا فسرعان ما عيّن مكانَه أخاه أحمدَ بن أيوبَ ، يُشْدِدُ بِهِ أزرَه ويشركهُ فِي أمرهِ ويساعده فِي إعداد الْجَيْشِ ، مَع مُحَمَّد بن شِيْركُوه ، وأَمَّا أخوه توران شاه فَقَدْ أرسله إلى اليمن ليؤدب الفاسدين فِيْهَا الَّذِيْنَ استولوا عَلَى الحكم هُنَاكَ فور سماعهم خبر وفاة أيوبَ ، وعاثوا فِي الأرض فسادًا .

فِي اليوم الثالث للعام الجديد (٥٦٩) وَصَلَ الرّد من فَاطِمَة :

---

(١) أعرض عنها : تركها وشأنها ولم يلتفت إليها .

(٢) نفقت : يقال للحيوان عند موته نفق .

ـ أخي صَلاَح الدِّيْنِ

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

لَقَدْ ملأ الحزنُ قلوبَنا وَغمرهُ الأسى بفقدانِ الوالدِ نَجْم الدِّيْنِ أَيُّوب وَمالنا إلا أَنْ نقولَ : لله ما أخذ وما أعطى وَكُلُّ شيء عنده بمقدار ، فلا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أَمَّا بالنسبة لقدومي للقاهرةِ فهذا صعبٌ عليَّ لأنني وبمشاركةِ عصمةِ الدينِ خاتون قَدْ صارتْ مسؤولياتنا كبيرة بسببِ المشاريعِ الَّتِيْ نفتتحُها كُلَّ فترةٍ ، بالإضافةِ إلى إشرافي عَلَى البيمارستان النُّوري ، ومعملِ العقاقيرِ كمَا تعلم .

أَمَّا بالنسبةِ للوصيةِ فأنتظرُ قدومَكَ لسماعِها ، وسلامِي لزوجِي مُحَمَّدٍ ولإخوتي الكرام ، وأحبُّ أن أخبركَ أنَّ الصَّغِيْر حُسَام الدِّيْنِ مشتاقٌ لكَ كثيرًا ودائمًا يسأل عنكَ .

فَاطِمَة بنت أَيُّوب

دِمَشْقَ البيمارستان النوري

غرة محرم[1] (٥٩٦) من الهجرة .

---

(١) غرة محرم : أول محرم .

لمْ يكنْ حكمُ مصرَ بالأمرِ الْهينِ على فتًى في مقتبلِ عمرهِ حَوْلَه الكثير من الحساد ، وبعيد عنه جحافل الأعداء يخططون ويمكرون ، ولاسيما بعد أن فقد الوالدَ الَّذِيْ كانَ أكبرَ عونٍ له بحكمته وُبْعدِ نظرهِ ، وبشجاعته وبسالتهِ .

لَمْ يترك الطَّامعون فِي الحكم فرصة إلا وَقَدْ مارسوها لإبعاده عن الحكم ، بعضها بالدسائس لدى السُّلطانِ نور الدين ، وبعضها بتحريض الصَّلِيْبِيِيْنَ للإسراع في القدوم للقاهرة والتَّخلص من ملكٍ مازال صغيرًا لدولة كبيرة ، وبعضها محاولات اغتيال عديدة باءت كلها بفضل الله بالفشل ، فمنذ المحاولة الأولى شعرَ بالخطرِ المحدق به ، فسرعان ما استبدلَ حرسَ الْقَصْرِ القديم بحرسه الموثوق به وبرجالٍ أحبوا صَلاَح الدِّيْنِ أكثرَ منْ أنفسهم ، بَعْضُهُمْ مصريٌّ ، وَبَعْضُهُمْ شاميٌّ ومنْهم الكردُ ومنهم العربُ ومنهم غيرَ ذلكَ ، ولكنَّ الأهمَ أَنَّهُمْ متحمسونَ ومدافعونَ عنِ الرِّسالةِ الَّتِيْ يسعى لها القائدُ الشّاب ، فأغلبُهم من خريجي المَدارسِ الَّتِيْ انتشرت في الْقَاهِرَةِ وغيرها .

فتوزع هَؤُلاءِ الخريجون كلٌّ في اختصاصهِ ومجالهِ ، بَعْضُهُمْ فِي المشافي وَبَعْضُهُمْ فِي العمارة البحرية وَبَعْضُهُمْ فِي العمارة المدنية ، ولكنَّ أغلب الخريجين كانوا فِي المدارس العسكرية ؛ لِأَنَّ المعركة الْقَادِمَةَ مَع الصَّلِيْبِيِيْنَ تحتاج إلى إعداد كلِّ شيء ، وتحتاج إلى رجال

وأيّ رجال ، وخيرتهم التفَّ حَوْلَ صَلاَح الدِّيْنِ يحرسُه ويحميهِ .

امتلأت الْبِلادُ بالجيلِ الجديدِ الَّذِيْ تربى في المدارسِ الَّتِيْ باشرتْ بتخريجِ دفعاتِها الجديدةِ ، ولاحظ كثيرٌ من المصريينَ أنَّ أمرَ الْبِلادِ قَدْ تحسن وأن الصدق حَلَّ محل الكذب ، والمروءة حلت محل الدناءة ، والشجاعة بدل الجبن وهكذا .

إلا أن أمرًا قَدْ لاحظه صَلاَح الدِّيْنِ وَهُوَ قلة الرسائل من نور الدين فَقَدْ مرَّت الأشهر العديدة على وفاةِ الوالدِ ولم يتسلمْ إلا رسالتينِ اثنتينِ ، وَلَمَّا أرسل رسالة لفاطمةَ يستفسرُ فيْها عن قلةِ رسائلِ السُّلْطَانِ ساوره الشَّك لمَّا أخبرته أَنَّهُ على غير ما يرام وَحَتَّى أنَّ حضوره قلّ ، وخروجه من الْقَلْعَةِ أصبح نادرًا ، وأغلب صلواتِهِ وَحَتَّى الجمعة منها يؤديها في الْقَلْعَةِ .

■ ■ ■

وفاة السُّلْطَانِ نُورِ الدِّينِ (٥٦٩) هـ

وأخيرًا وَبَعْدَ عشرة أشهر من وفاة نجم الدين أيوب جاء الحمام الزاجل بالخبر التَّالِي من دِمَشْقَ :

أعلنتْ مآذنُ دِمَشْقَ بكلّ حزنٍ وأسىً وفاة نُوْرِ الدِّيْنِ الشَّهيد بَعْدَ عيدِ الفطرِ من عامِ ٥٦٩ هـ .

خرجت جنازة مهيبة من قَلْعَةِ دِمَشْقَ باتجاه الْجَامِعِ الأُمويّ حَيْثُ صلي عَلَيْهِ هُنَاكَ ، ثُمَّ حمل إلى تربة قريبة من الْمَسْجِدِ رقد فِيْهَا ولم يتجاوز السّتين عامًا .

عندها أعلنت مآذن الْقَاهِرَةِ الحزنَ أَيْضًا ، وَأَمَّا صَلاَح الدِّيْنِ وبالرّغم من حبِّهِ الشَّديدِ للسلطان الشَّهيدِ فلمْ يكنِ الخبرُ بوفاة السُّلْطَانِ لَهُ وقع شديد إلا أياماً ؛ بَلْ كانتِ الفاجعةُ بما حملَهُ الحمام الزاجل من البريد التَّالِي :

ـ صار الكبيرُ والصَّغِيْر والخائنُ والأمينُ يتدخَّل فِي أمرِ الدولةِ !!

بدأ الخلاف يشبُّ فِي بلاط السُّلْطَانِ !!

ـ الغلامُ إسماعيل بنُ نُوْرِ الدِّيْنِ عجزَ أَنْ يواجه الطَّامعين وحدَه !!

ـ بدأ الصليبيون بالتَّحرك !!

خشيَ صَلاَح الدِّيْنِ أَنْ تتفرقَ كلمة المُسْلِميْنَ ، ولأولِ مرّة وجدَ نفسَه أَمَامَ جبهتين :

ـ جبهةِ الصَّلِيْبِيِيْنَ الَّتِيْ مازالت تتوافد إلى بلاد المسلمين .

ـ وجبهةِ الطَّامعينَ فِي الحكمِ !!

لَمْ تقتصرِ المشكلةُ فِي قدوم الصَّلِيْبِيِيْنَ ، فما تعاني منه الْبِلاد صار أدهى وأمر ، وكَيْفَ يتصرفُ أي قائد فِي مِثْلِ هَذِهِ الأمور ؟

لا شكَّ أنَّ هَذَا القائدَ سيكون ذا حكمةٍ ورؤية ثاقبةٍ .

ومنْ لهذهِ المهمةِ الصّعبةِ إلاّ الأبطالَ والرّجالَ ؟

سُرْعانَ ما حسمَ أمرَه ، وكشف خطته ، وشاورَ أهل الحلِّ والعقدِ ولا سيما ابْن عَصْرُونَ والأصفهاني .

وَصَلَ دِمَشْقَ وسوَّى الخلافات وردعَ الطَّامعينَ وضربَ بيدٍ من حديدٍ الخارجينَ عَلَيْهِ وعلى الدولة الَّتِيْ أسسها نُوْرُ الدين ووالده عماد الدين ، وَلَمَّا عَلِمَ الخونةُ والمتآمرون عزمه عَلَى توحيدِ الْبِلاد

حاولوا اغتيالَه بتحريضٍ من الصَّلِيْبِيِيْنَ كما اغتالوا عِمَاد الدِّيْنِ من قبلُ فلاحقهمْ وشتت شملَهم .

زار أخته سِتّ الشَّامِ وقبل أَنْ تسأله عن الوصية قالت لَهُ :

ـ اسمع يا يُوْسُفُ ، عَلَيْكَ أَنْ تتزوج عصمة الدين خاتون أرملة نُوْرِ الدين الشَّهيد .

استغرب صَلاَح الدِّيْنِ من اقتراحها وَلَمَّا سألها عن السّبب قالت :

إنها عَلَى خلقٍ كريمٍ فَهِيَ ملكة ابنة ملكٍ وزوج ملكٍ وأم ملكٍ ، كما أَنَّهَا ذَاتَ جمالٍ بارعٍ ، ولكن الأهم من ذلك أنك وبزواجك مِنْهَا تقطع الطَّريق عَلَى الطَّامعين فِي الحكم وتقوي الأسرتين الزّنكية والأيوبية .

فكر صَلاَح الدِّيْنِ وفكر ثُمَّ قَالَ :

ـ نعم الرّأي رأيك ولكن لا بد من اسْتشارتها .

ردت عَلَيْهِ سِتّ الشَّامِ :

ـ اترك الموضوع لي يا يُوْسُفُ وسأتولَّى الأمر .

ثُمَّ أردفت كلامها :

ـ ولكن إذا وافقت عصمة الدين وكتب الله لكما الزواج سأطلب منك هدية تليق بالمناسبة .

قَالَ صَلاَح الدِّيْنِ :

إن شاء الله سأحضر أجملَ هدية لسِتّ الشَّامِ .

ردَّت فَاطِمَة :

ـ سِتّ الشَّامِ لا تريد هدية ، الهدية للشام يا يُوْسُفُ .

وماهي الهدية يا أختي ، قَالَ صَلاَح الدِّيْنِ

ردَّت فَاطِمَة :

ـ أريد أَنْ تهدي الشَّامَ مدرسةً للبنات .

رَدَّ عليها :

ـ أوليس عندكم الْمَدْرَسَة الشَّامية قرب الأموي .

قالت فَاطِمَة :

ـ نعم يا يُوْسُفُ ولكن كثرت أعدادُ النَّاسِ ، ونريد واحدةً أخرى خارج السّور حَتَّى تخدم الطَّالبات من غوطة دِمَشْقَ الغربية .

أنهى صَلاَح الدِّيْنِ كلامه :

أبشري يا فَاطِمَة ، وَحَتَّى لو لَمْ توافق عصمة الدين عَلَى الزواج مني ، اختاري المكان المناسب وأخبري ابْنَ عَصْرُونَ حَتَّى يشرف عَلَى البناء .

بَعْدَ يَوْمَيْنِ فقط جاءت البشرى لصَلاَح الدِّيْنِ لَقَدْ وافقت عصمة

الدين خاتون على الزواج ، واشترطت أنْ تبقى في بيتها بقلعة دِمَشْقَ لتكونَ قريبةً من بيت ابْنَها إسماعيلَ ، فوافق على طلبها .

وبعد أسبوعٍ زُفَّت إليهِ في ليلةٍ سعيدةٍ مباركةٍ امتلأت بالمودة والرحمةِ والمحبةِ ، ولم تكُ ليلةً عاديةً فبالرغم من جدّيْةِ صَلاَح الدِّيْنِ وانشغاله في قتال الصَّلِيْبِيِيْنَ وتوحيد الصفوفِ والاستعداد للمعركة الفاصلة إلا أَنَّهُ وجد في عصمة الدين خاتون ما تستحق اهتمامه ومحبته فنالت عنايته وكرمه ، وكما استحق مِنْهَا ما يستحقه ، وكذا لم يهمل أيَّ رأيٍ مِنْهَا فبالرغم من جمالها الأخاذ فَقَدْ حباها الله عقلاً راجحًا وحكمةً بالغةً .

وبهذا الزواج هدأتِ الأمورُ بَيْنَ العائلتينِ وصارَ صَلاحُ الدِّيْنِ يتنقل بَيْنَ الْقَاهِرَةِ ، ودِمَشْقَ يهيىء الناس لقتال يوم كريهٍ ، وأَمَّا الغلام إسماعيل وبعد أنْ بدأت ملامح الشباب تخطُّ في جسمه ، طلب من عَمّه صَلاَح الدِّيْنِ أَنْ ينتقل لقلعة حَلَبَ ليكون أميرًا عليها ، وكان لَهُ ما أراد .

لَمْ تهدأ الحركة العلمية والتَّدريب العسكري فِي كُلٍّ من دِمَشْقَ والقاهرة ، وفي أقل من سنةٍ كانت أبواب الْمَدْرَسَة الشَّامية الجديدة قَدْ فتحتْ أبوابها لاستقبالِ الفتيات وأَطلقوا عليها « الْمَدْرَسَة الشَّامية البرانية » ، وأَمَّا الَّتِيْ بالقرب من الأموي فصار اسمها « الشَّامية الجوانية » ، ولمْ يكن الإسراعُ في فتحها إلا بهمة فاطمة وخاتون ،

أختٌ حريصةٌ على الشام فأسمتها نساء دِمَشْقَ باسمها ، وزوجةٌ محبة للزوجِ الجديدِ ، وللمدينة الَّتِيْ عشقتها .

كمْ كانَ الفراقُ المؤقتُ لعصمةِ الدينِ مؤلمًا لصَلاَح الدِّيْنِ فبالرغم من تعلُّقه بها إلا أَنَّهُ كان يتركها في دِمَشْقَ ويجدُّ مسرعًا للقلاع والجبهات والمدن والأصقاع والأمصارِ من أجل إتمام ما يصبو إليه .

ولكنَّ الْقَاهِرَةَ كانت أكثر الأماكن يشدُّ إليها الرحال فهي توأم دِمَشْقَ ومركز القوة والحضارة ولا بد من تهيئتها لتكون على أهبةِ الاستعدادِ ، الاستعْداد العسْكريّ والعلميّ ، فيومٌ يُفْتَتَحُ مشفًى كبيرٌ وَلَكِنَّهُ لا يضاهي المشفى الصلاحي هُنَاكَ ، ومرة تفتتحُ مكتبةٌ تضمُّ نفائسَ المخطوطاتِ وأروعَهَا ، ولكنَّها لا تضاهي مكتبةَ البيمارستان النُّوري ، أو مكتبة الأموي ، أو مكتبة دار الحديث النورية ، ومرةً يبني المهندسونَ خانًا للمسافرين ، ومرة يفتتح الملك الناصرُ معسكرًا جديدًا لاستقبالِ المتطوعيْنَ .

ومن الْقَاهِرَةِ يعود لدمشق مارّاً بالقلاع المنيعة والحصون الحصينة ، وبعد قضاء أيامٍ قليلةٍ عند الحبيبةِ الغاليةِ والأختِ العزيزةِ ، والأسرةِ والأولادِ والأقاربِ والمشايخِ والقادةِ ، يشدُّ رحله صوب حمصَ وبعلبك وحماة وغيرها ، وأَمَّا فِي حَلَبَ فيطيبُ له المقامُ للإشراف على ما وصَّىٰ به نور الدين الشَّهيد ، فما زال العمال

المهرة يصنعون منبرًا فخمًا يليق بالمسجد الأقصى ريثما يتم تحريره من أيدي الصَّلِيْبِيِيْنَ .

وَأمَّا قتالُه عَلَى الجبهةِ الأخرى فلمْ يتوقفْ ؛ مرةً بنزالِ الصَّلِيْبِيِيْنَ ومناوشاتهم فِي أماكنَ عدةٍ ، ومرةً بمعاهدتهم ريثما ينتهي من ترتيبِ بيته الداخلي وتنظيمِ جيشهِ وتعزيزهِ ليومٍ كريهٍ يراه قريبًا .

■ ■ ■

محاولاتٌ متكررة للاغتيال

بالرّغم من النهضة العلمية والعسكرية الَّتِيْ نهضَ بِهَا صَلاَح الدِّيْنِ ، ورغم هدوء المناوشات مَع الصَّلِيْبِيِيْنَ الَّذِيْنَ يبدو أَنَّهُمْ غَيَّروا خططهم العسكرية فَقَدْ حملت الحمامات الَّتِيْ حَطَّتْ عَلَى قَلْعَةِ دِمَشْقَ أخبارًا غيرَ سارةٍ تفيد بفتح جبهات فِي الشَّمال السّوري ، ولعلَّ أشدها إيلاماً ؛ أن الحشاشين بقيادة رَشِيْد الدِّيْنِ سنان فِي طريقهم لحصار حَلَبَ ، وأن إسماعيل الصَّغِيْر لا طاقة لَهُ بهم ، وَحَتَّى الأمير شِهَابُ الدِّيْنِ خال صَلاَح الدِّيْنِ الَّذِيْ أصبح أميرًا عَلَى حماة لا يستطيعُ مقاومتهم وحدَهُ .

اجتمع صَلاَح الدِّيْنِ مَع كبار قادته وتشاوروا فِي الأمر وكثرت الأقاويل . . . بعضُهم قَالَ :

ـ هَؤُلاءِ الحشاشون ساءهم القضاء عَلَى الفَاطِمِيِّينَ لأنهم من أتباعهم ويُرِيْدُون الانتقام ، والبعض قَالَ لَقَدْ نجح الصليبيون فِي

إثارة النعرات والقلاقل فِي بلادنا يُرِيْدُون أَنْ ننهمك فِي قتال الحشاشين كَيْ يضعف الطَّرفان .

أَمَّا صَلاَح الدِّيْنِ فَقَدْ حزم أمره ، فأعلن أَنَّهُ لا يستطيع طرد الصَّلِيْبِيِيْنَ إلا بالقضاء عَلَى الفتن والقلاقل فِي الْبِلاد وأهمها القضاء عَلَى الحشاشين جماعة رَشِيْد الدِّيْنِ سنان الَّذِيْنَ قويت شوكتهم بسبب العقيدة الَّتِيْ يؤمن بِهَا أتباعه أولاً ، وبسبب دعمهم من قبل الأمراء الصَّلِيْبِيِيْنَ فِي طرابلس والقدس وغيرها .

وَحَتَّى الحشاشون كانوا يجهزون العدةَ لاغتيالهِ فَقَدْ سبق لَهُمْ أن اغتالوا عماد الدين زنكي والد نُوْرِ الدين وغيره من الرّجال .

هَذِهِ هِيَ خطة الحشاشين القضاء عَلَى الرّأس الكبير ، عندها ينهار كُلّ شيء وتدب الفوضى فِي الْبِلاد كلها .

ذَاتَ ليلة من عام (٥٧٠) اجتمع رَشِيْد الدِّيْنِ مَع أربعةٍ من الفدائيين منْ خيرةِ رجاله ، كانت الخطة السّرية تقضي بأن يتسلل هَؤُلاءِ الفدائيونَ الأربعةُ إلى خَيْمَةِ صَلاَح الدِّيْنِ فِي جوف معسكره الرّابض فِي حَلَبَ ويتخلصون منه ، وَهُمْ يعرفون أَنَّهُمْ لن يعودوا بَعْدَ تنفيذ مهمتهم فالموت في سبيل تحقيق أهدافهم أسمى ما يتمنونه .

ودَّع رشيد رجاله الأربعة بَعْدَ أَنْ جهز المقاسات المناسبة من

الزي العسكري لكل منهم كالذي كَانَ يرتديه جُنُودُ صَلاَح الدِّيْنِ ، وكما أمن لهم الأسلحة الَّتِيْ يحملونها والخنجر المسموم الَّذِيْ سيطعن صَلاَح الدِّيْنِ من قبل أشجعهم .

فِي ظلامِ الليلِ الدامسِ وَصَلَ الأربعةُ حَوْلَ الْمُعَسْكَرِ انتظروا قليلاً ريثما يؤذن المؤذن لصلاة الفجر كَيْ يستغلوا حركة الجنود فِي الاستعداد للوضوء والصلاة ، وها هُوَ مؤذن الْمُعَسْكَرِ يرفع الأَذَان ، همس أحد الحشاشين الأربعة : هَؤُلاءِ يؤذنون للصلاة أليسوا مسلمين مثلنا ؟

رَدَّ عَلَيْهِ أحدهم : نعم يا أخانا إنهم يؤذنون ولكن أذانهم ناقص ، هم منافقون ، لا يؤمنون بإمامة سيدنا نزار المصطفى لدين الله ، وقال آخر لَقَدْ قضى ابن أَيُّوب عَلَى دولتنا فِي الْقَاهِرَةِ بَعْدَ أَنْ خدع آخر خلفائنا من الفَاطِمِيِّينَ ، ستكون نهايته بَعْدَ لَحَظَاتٍ عَلَى أيدينا الويل لَهُ ، وهمس الثالث : كفوا النقاش وهيا نتسلل لِلْمُعَسْكَرِ فَقَدْ أدى صَلاَح الدِّيْنِ صلاة الفجر وها هُوَ عائد مَع رجاله إلى خيمته ألا ترونه ، ألا ترون الخيمة ؟ إنها تلك الكبيرة الَّتِيْ تقع فِي المنتصف ، هيا نتسلل خفية ولا تنسَوا أَنْ تدعوا إمَامنا نزارًا أَنْ يسهل لنا مهمتنا ، وإنِ اسْتشهدنا أَنْ نلتقي معه فِي جنةٍ عرضها السّمواتُ والأَرْضُ .

رَدَّ الثلاثة : آمين آمين همسًا ، وبَعْدَها قَالَ قائدُهم :

بجاهك يا إمامنا أَنْ تجعلَ نهايةَ ابنِ أَيُّوبَ عَلَى أيدينا .

فِي غفلةٍ من حرسِ جُنُودِ صَلاَح الدِّيْنِ ، كَانَ الأربعة بالقرب من الْمَسْجِدِ ، وَقَدْ اختلطوا مَع الجنود الَّذِيْنَ تأخروا فِي خَيْمَةِ الْمَسْجِدِ ، سار الأربعةُ نَحْوَ خَيْمَةِ صَلاَح الدِّيْنِ بحذر !!

لا أحد يشكُّ فيهم ، فَهُمْ يرتدون الملابس العسكرية الَّتِيْ يرتديها جُنُودُ صَلاَح الدِّيْنِ نفسها ، تقدموا أكثر حَتَّى صاروا عَلَى مقربة من بابِ الخيمةِ التي دخل إليها القائدُ قبلَ قليلٍ ، أشهروا سلاحَهم بِسرعةِ البَرْقِ وطعنوا قائد الحراسةِ بضربةٍ قاضيةٍ ، وقبلَ أَنْ يشْرعوا فِي دخول الخيمة دوى الصّياحُ والهيجانُ .

يا لهولِ المفاجأة الَّتِيْ لَمْ يحسب لها صَلاَح الدِّيْنِ أو جنده أي حساب ، نهض صَلاَح الدِّيْنِ حاملاً سيفَه وانطلق كالأسد الهصور نحو الجَلبةِ ، وَلَمَّا تيقن من شرِّهم أخذَ يبارزهمْ ، وفي الحال حضرَ مُحَمَّد بن شِيْركُوه وهوى عَلَى أحدهم وأرداه قتيلاً ، وفجأةً تمكن أحد الحشاشين من القفز وهوى عَلَى رأس صَلاَح الدِّيْنِ بخنجره المسموم إلا أَنَّ خوذة صَلاَح الدِّيْنِ وَقَتْهُ من ضربة قاتلة وقبل أَنْ يهوي عَلَيْهِ بضربة ثانيةٍ نَحْوَ قلبه ، كَانَ ساعده الأيمن فِي قبضة مُحَمَّد بن شيركوه اليمنى فلوَاها بقوة جعلت الحشاشَ يرمي خنجره أرضاً ، في الحالِ صاح صَلاَح الدِّيْنِ :

لا تقتلوه ، لا تقتلوه ، أبقوه حيًّا .

انتهت محاولة الاغتيال بمصرع الثَّلاثةِ وأسرِ الرّابعِ الَّذِيْ أقرَّ بخطتِهم الَّتِيْ ظنوها محكمةً ، وكما استفاد المحققون من معلوماتٍ هائلةٍ عَنْ تعاليم رَشِيْد الدِّيْنِ الصارمةِ وعنْ دفاعِهِم الْمستميت عَنْ معتقداتهم ، وكذا عنْ نوعِ الحشيشِ الَّذِيْ يتناولونَهُ .

أَرْسَلَ صَلاَحُ الدِّيْنِ رسالة عاجلةً لرَشِيْد الدِّيْنِ يبشِّره بفشل خطته ويتوعده بالزحف نحوهم ، والقصاص منهم .

وَلَمَّا وصلت الرّسالة لرَشِيْد الدِّيْنِ أخذته العزة بالإثم ، وبدلَ أنْ يعتذر أرسلَ ردًا قاسيًا يهدد فِيْهِ صلاحَ الدين والمسلمينَ ويتوعد .

بَعْدَ مدة حاول رَشِيْد الدِّيْنِ أنْ يعيدَ الكَرَّةَ ؛ فأَرْسَلَ جماعة أخرى عندما كَانَ صَلاَح الدِّيْنِ يحاصر قَلْعَة إعزاز قرب حَلَبَ ، وأيضا باءت بالفشل ، ولكنَّ صَلاَحَ الدِّيْنِ من بعدها صار أكثرَ حيطةً وحذرًا ، فشدد الحراسة حَوْلَ خيمته وحَوْلَ نفسهِ أينما حلَّ أوِ ارْتحلَ ، وأخذَ يفكرُ بخطةٍ سريعةٍ للتخلصِ من الخطرِ الذي يلاحقه .

لم ينتظر طويلاً ، فرَشِيْد الدِّيْنِ مصمم على اغتياله ولا بد من حلِّ الخطر الَّذِيْ يلاحقه ويهدد بتقويض الدولة الأيوبية ، ولا بد لصَلاَح الدِّيْنِ أن يتغدى برَشِيْد الدِّيْنِ قبل أن يتعشى به مَع أتباعه الحشاشين فالحربُ خدعةٌ !!

شَاوَر صَلاَح الدِّيْنِ قادته عدة ليالٍ ، واتخذوا قرارًا بغزوهم وحصارهم وكسر شوكتهم ، فتمَّ تحريكُ القوةِ العسكريةِ نحوَ

مركزهم الرئيس ، هُنَاكَ في المناطِقِ الخطيرةِ ما بين حماة والسّاحل السّوري تقع مدينة مصياف ، هذه المدينةُ الَّتِيْ اشتقت اسمها من طبيعتها الخلابة وجبالها الشاهقة وظن سنان وأتباعه أن مناعة قلعته ستحول بينَه وبينَ صَلاَح الدِّيْنِ ، وأنَّ الطُّرقَ الصعبةَ المؤديةَ إليها ستمنعُ الجيوشَ والحشودَ أن تصل إليها .

ولكنْ إذا صممَ صلاحٌ وجيشُه على أمرٍ ما ، فلم تمنعهم إلا إرادة الله ، وخلال عشرة أيام فوجيء الحشاشون بمحاصرة قَلْعَة مصياف ، كادوا لا يصدقون !! كَيْفَ وصل صلاح وجيشه إلى الْقَلْعَةِ المنيعةِ .

لم يبدأ القائد بدك الْقَلْعَةِ بالمناجيقِ العملاقةِ الَّتِيْ سحبَها معَهُ ، بلْ أحبَّ أنْ يرسلَ شروطَهُ كَيْ يفكَّ الحصارَ عنْهم ، وأعطاهم مهلةً للتفكيرِ .

اجتمع رَشِيْد الدِّيْنِ مَع أتباعه فِي الْقَلْعَةِ وطلبوا هدنةً طويلة الأمد ، وأن يعود صَلاَح الدِّيْنِ من حيث أتى ، لكنه رفض ، ثُمَّ طلبوا صلحًا بين الطرفين على أنْ ينسحب صلاح الدين ، ولكنه رفض أيضًا .

عندها أَرْسَلَ لَهُ رَشِيْد الدِّيْنِ رسالة قَالَ فِيْهَا :

ماذا تريد يا ابن أَيُّوب منا ؟ رفضت الهدنة ، ثُمَّ رفضت المصالحة !!

رَدَّ صَلاَح الدِّيْنِ فِي رسالة سريعة :

أريد منكم ألا تتعاونوا مَع الصَّلِيْبِيِيْنَ وألا تكونوا عونا لَهُمْ عَلَى المسلمين .

انتظر صَلاَح الدِّيْنِ الرّد منهم لَقَدْ انتهت المهلة الَّتِيْ منحهم إياها وقبل أَنْ يدك قلعتهم بالمناجيق العملاقة ، وَصَلَ لخيمة صَلاَح الدِّيْنِ خاله شِهَابُ الدِّيْنِ أمير حماة فطلب اجتماعًا عاجلاً مَعَه .

ذُهلَ صَلاَح الدِّيْنِ من الزيارة المفاجئة لخاله الَّذِيْ يُكِنُّ لَهُ كُلّ المودة والاحترام ، وَلَمَّا سأله عَنْ سبب قدومه قَالَ لَهُ شِهَابُ الدِّيْنِ :

ـ لَقَدْ قامت بيني وبين رَشِيْد الدِّيْنِ مراسلات كثيرة عَنْ طريق بعض أتباعه فِي حماة فَهُمْ منتشرون فِي بعض المناطق وَقَدْ طلب مني أَنْ أتوسط لديك لتقبل صلحهم .

فكر صَلاَح الدِّيْنِ ثُمَّ رفع رأسه ونظر إلى خاله وقال لَهُ :

ـ كنت فِي هَذَا اليوم سأدكُّ قلعتهم وأهدم ما تبقى من بيوتهم ولكن من أجل شفاعتك يا خالي سأقبل صلحهم بشروط .

رَدَّ شِهَابُ الدِّيْنِ :

وما هِيَ شروطك يا خالي ؟

قَالَ صَلاَح الدِّيْنِ : لَقَدْ حاولوا اغتيالي مرتين ولو تمكنوا مني لما وجدتني معك الآن ، سأخط لك رسالة توصلها بنفسك لزعيمهم

وسأضع شروطي فإن وافق فككت الحصار عنهم وجعلتهم آمنين فِي بلادنا .

طلب صَلاَح الدِّيْنِ قرطاساً ومحبرة وقلماً وكتب رسالة قصيرة ، وَلَمَّا انتهى نفخ عليها كَيْ يجف حبرها ثُمَّ طواها وألقى بِهَا لخاله قائلاً :

اذهب الآن وقابل رَشِيْد الدِّيْنِ ولا تعود إلا والرّد معك .

نادى منادٍ من معسكر صَلاَح الدِّيْنِ :

أَيُّهَا الناس سيأتيكم رسولٌ من قبل صَلاَح الدِّيْنِ حاملاً رسالة لرشيد الدين .

وَهَذَا النداء ظل يتكرر ويتردد من جندي لآخر حَتَّى وَصَلَ لأول جندي من جُنُودِ رَشِيْد الدِّيْنِ وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ جاء الرّد من قلعة مصياف حَتَّى وصل معسكر المسلمين :

ـ فليأت هُوَ فِي أمان ، وظل الصوت يتردد من حارس لأخر حَتَّى وَصَلَ لمسامع صَلاَح الدِّيْنِ وخاله .

ودَّع صَلاَح الدِّيْنِ خاله وتمنى لَهُ التوفيق فِي مهمته ، امتطى شِهَابُ الدِّيْنِ جوادًا أشهب مفتول العضلات يصهل رافعاً قوائمه الأمامية محركاً رأسه يمنة ويسرة .

نَكَزَه فانطلق يعدو يسابق الريح حَتَّى وصل بوابة الْقَلْعَةِ الرّابضة فوق هضبة تشرف عَلَى مصياف وما حَوْلَها .

فِي الحال كَانَ رَشِيْد الدِّيْنِ أول المستقبلين فسلم عَلَى شِهَاب الدِّيْنِ وعانقه وسار به وصحبه إلى مقر القيادة .

قَالَ رَشِيْد الدِّيْنِ :

ـ ما عندك يا شِهَاب الدِّيْنِ لَقَدْ طال بنا الحصار ؟

رَدَّ عَلَيْهِ شِهَاب الدِّيْنِ :

لَقَدْ قبل صَلاَح الدِّيْنِ وساطتي ولكن بشروط .

وما هِيَ يا شِهَاب الدِّيْنِ ؟ قَالَ رشيد الدين .

لَمْ يجب بَلْ ألقى الرّسالة بَيْنَ يديه .

أخذ زعيم الحشاشين يتمعن فِي الرّسالة ويهز برأسه وَسُرْعَانَ ما رفع رأسه وقال :

هَذِهِ شروط تعجيزية يا شهاب الدين .

رَدَّ شِهَاب الدِّيْنِ : وما هِيَ ؟

استنكرَ رَشِيْد الدِّيْنِ قائلاً : أولمْ تقرأ الرّسالة أو اطلعت عليها ؟

قَالَ : لا يا رَشِيْد الدِّيْنِ فالأمانة ألا أقرأَها إلا إذا أمرني بذلك .

قَالَ رَشِيْد الدِّيْنِ : إنَّ ابن أختك يطلب مني أَنْ أغتالَ أخطر قائدين من قواد الصَّلِيْبِيِّيْنَ !! أمير طرابلس وأمير صور !! وإن وافقت فسوفَ يفكُّ الحصار عنَّا .

ضحك شِهَابُ الدِّيْنِ قائلاً : إنهما كفَّارة عَنْ محاولتَيْ الاغتيال

الفاشلتين ، العين بالعين والسّن بالسّن والقائد بالقائد ، هذا هو العدل الَّذِيْ يرضي الطَّرفين ، فماذا تقول حَتَّى أخبره ؟

ضحكَ زعيم الحشاشين ضحكة بانت مِنْهَا أسنانه الصفراء وقال : إن ابن أختك هذا داهية من الدواهي ، كَيْفَ خطرتْ على بالِهِ تلكَ الفكرة الجهنَّمية ؟ لَقَدْ رمى ثلاثة عصافير بسهمٍ واحدٍ !!

قال شِهَابُ الدِّيْنِ : كَيْفَ ذلك ؟

رَدَّ عَلَيْهِ : في خطته هذه سيتخلص من أكبرِ عدوينِ لهُ بيدِ رجالِي الأقوياء الَّذِيْنَ لا يتوانون عن تنفيذ أوامري .

استفسر شِهَابُ الدِّيْنِ قائلاً :

ـ والعصفور الثالث ؟

رَدَّ عَلَيْهِ :

ـ أنا وجماعتي يا شِهَاب الدِّيْنِ !!

قال له شِهَاب الدِّيْنِ :

ـ يا رَشِيْد الدِّيْنِ لماذا تتحالفون مَع الصليبين الَّذِيْنَ غزوا بلادنا ، أنتم عرب ومواطنون ، الواجب أن تكونوا مَع صَلاَح الدِّيْنِ والمسلمين أو تقفوا على الحياد إن كنتم لا تحبوننا !

أطرق رَشِيْد الدِّيْنِ لَحَظَاتٍ ثم رفع رأسه وقال :

ـ أنا موافق على طلب صَلاَح الدِّيْنِ ، وسنخطط أولاً لاغتيال

أمير صور ، اذهبْ وأبلغْ رسالتي هَذِهِ لصَلاَح الدِّيْنِ

رَدَّ شِهَابُ الدِّيْنِ : ولكن أريد أَنْ تكونَ موافقتك بكتابٍ خطيٍّ .

تناول سنان قرطاسًا وقلمًا وخطَّ بهِ تعهدًا باغتيال القائدين ، وأن طائفته ستكون عَلَى الحياد فِي معاركه مَع الصَّلِيْبِيِيْنَ .

وَصَلَ الخطاب لصَلاَح الدِّيْنِ وأمر جنده بفك الحصار عَنْ قَلْعَةِ مصياف فوراً والسّماح للمحاصرين بالخروج ومزاولة أعمالهم .

وَبَعْدَ مدة من الزمن وصلت الأخبار باغتيال أمير صور عَلَى يد رجال رَشِيْد الدِّيْنِ سنان فغضب الصليبيون عَلَى جماعة سنان وصاروا يتوعدونه ، وانتظر صَلاَح الدِّيْنِ أَنْ تحمل حماماته نبأ اغتيال أمير طرابلس ولكن لا جدوى فيبدو أَنَّ رَشِيْد الدِّيْنِ عدل عَنْ رأيه حَتَّى يستفيد من صراع الطَّرفين ، أو أَنَّ أمير طرابلس بعد اغتيال صديقه صار يحتاط للأمر الوشيك وقوعه .

وخِلالَ بضعِ سنواتٍ أمِنَ صَلاَح الدِّيْنِ من شر رَشِيْد الدِّيْنِ والحشاشين وقضى عَلَى كُلّ ما يفسد دولته حَيْثُ صار الْجَيْش كلُّه تَحْتَ قيادته وضمّ إليه الحجازَ واليمن والعراق بالإضافة للشّام ومِصْرَ ، وبجهوده صار للمسلمينَ دولةٌ موحدةٌ قويةٌ تحيط بمملكة بيْتِ المَقْدِسِ والإماراتِ الصليبيةِ من الشَّمالِ والشَّرقِ والجنوبِ .

■ ■ ■

معركة حطين

فِي عام (٥٨٢) وصلتِ الأخبارُ المزعجة لصَلاَح الدِّيْنِ كَانَ بدايتها الرّسالة الَّتِيْ حملتها الْحَمَامَةُ من دِمَشْقَ

كانت من أخته فَاطِمَة جاء فِيْهَا :

أخي صَلاَح الدِّيْنِ يُوْسُفُ

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

لَقَدْ عزمْتُ هَذَا العام عَلَى أداء فريضة الحج مَع ابني حُسَام الدِّيْنِ ، ولكننا عدنا لدِمَشْقَ قبل أَنْ نصل قَلْعَةَ الكرك ، فَقَدْ نصحنا القاضي مُحَمَّد بن عصرون أَنْ نرجع فِي الحال لِأَنَّ أرناط حاكمَ الكركِ يقطع الطَّريق ويأخذ من الناس أسرى ، فخشي أَنْ نقع فِي قبضته ونصبح كنزًا ثمينًا عنده ، وأمَّا ولدي حُسَام فَقَدْ أبى أن يرجع معي للشام فهو فِي الطَّريق إليكم .

كما جاءته رسالةٌ ثانيةٌ منْ أحدِ أعْوانِهِ :

أَرْناط يقطع الطَّريقَ عَلَى الحجاج الذاهبينَ لمكةَ ويسلبهمْ أموالهمْ ، وكثيرٌ ممن مَرَّ فِي طريقه أقسم أَنَّهُ سمعه يشتم الرّسول الكريم صلوات الله عَلَيْهِ وَقَدْ هدَّدَ بالاستيلاءِ عَلَى المدينةِ المنورةِ ونبشِ قبرِ الرّسولِ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ .

أسرَّها صَلاَح الدِّيْنِ فِي نفسهِ ، وأقسمَ باللهِ أَنَّهُ سيقتل هَذَا القائد الصليبي الوقح بسيفه إن ظفر به .

وصارَ ينتظرُ الفرصةَ المناسبةَ للانتقام من هَذَا الوغد اللئيمِ .

اجتمعَ مَع كبارِ قادتِهِ ، شاورهمْ فِي استدراجِ الصَّلِيْبِيِّيْنَ لمنازلتهمْ فِي معركةٍ فاصلةٍ ، بسطَ خارطة بلاد الشَّامِ ومِصْرَ أمامهمْ وناقشَ قادته فِي أمور كثيرة مِنْهَا اختيار المكانِ والزمان المناسبَيْنِ وَبَعْدَ مناقشات فِي ليالٍ عديدةٍ استقرّ الرّأيُ أَنْ تكونَ المعركةُ فِي سهل حطّينَ وفي فصلِ الصَّيفِ بالذات ، فحطّينُ سهولُها واسعةٌ وتحيطُ بِهَا تلالٌ من جوانبَ عديدةٍ تجعل قوات المُسْلِمِيْنَ تحيط بِهَا من كُلِّ جانبٍ ، وأمَّا ينابيعها فوافرةٌ وعذبةٌ .

أَرْسَلَ حماماتِه الزاجلاتِ إلى كُلِّ المدائنِ والقلاعِ يأمرهمْ بالاستعدادِ للقوةِ ورباطِ الخيلِ ليرهبوا عدوَّ الله وعدوهمْ ، وفعلاً وفي غضونِ أسابيعَ وفي بدايةِ الرَّبيع من عام (٥٨٣) كانتِ الجيوش

قَدِ اكتملت فسار بِهَا إلى فلِسْطينَ ولكِنَّهُ قبل أنْ يصلَ إليها عَرَّجَ عَلَى قَلْعَةِ الكركِ فرماها بالمنجنيقِ وحاصرها أيامًا ، حَتَّى استسلمت فأَسَرَ مِنَ الجنود منْ أسر ، وفكَّ قيدَ من كَانَ بسجن أَرْناط من المُسْلِميْنَ ، ولكِنَّهُ غضب لمَّا علم بفرارِ أَرْناطَ إلى بيتِ المقدسِ ، وأقسم اليمين مرَّةً أخرى أنْ يقتله لو ظَفِرَ[1] بِهِ .

وهُنَاكَ فِي ربوع فلِسْطينَ وزَّع جيشَه فِي أماكنَ متفرقةٍ حَيْثُ نَعِمَ بالرّاحةِ بَعْدَ عناء السَّفرِ فالجوّ جميلٌ والخضرة ناضرةٌ واللوز ملأ السُّهولَ والوديانَ فِي الجليلِ الأعلى ، ورائحة الزعتر تفوحُ فِي كلِّ مكانٍ ، والطُّيور تزقزق ، وأسراب الحمام الَّتِيْ يُحبُّها صَلاَح الدِّيْنِ تطير من شَجَرَة إلى شَجَرَة ومن غصنٍ لآخرَ تتمايلُ مَع حمامات صَلاَح الدِّيْنِ الزاجلة .

ذَاتَ ليلة فوجيء بجلبة وصيحة أَمَامَ خيمته ، وَلَمَّا خرج يستطلع الأمر هرع نحو الضيف الجديد القادم من دِمَشْقَ .

وبادره بقوله :

أهلاً بك يا حُسَام الدِّيْنِ ، الحمد لله على سلامتك وسلامة أمك ست الشام فاطمة .

ردَّ عَلَيْهِ : وعليكم السّلام يا خالي الكريم ، أحببت أن ألتحق

---

(١) ظفر به : تمكن منه .

بجيشك لقتال الصليبيين ، فَقَدْ صرت شاباً يافعاً أستطيع مقارعة الأعداء ، وإن أحببت أَخْرِجْ لي أي رجل من عندك يبارزني .

ابتسم صَلاَح الدِّيْنِ قائلاً : لا عليك يا محمد ، أنا الَّذِيْ اخترت لك لقب حُسَام الدِّيْنِ ، وأعرف مكانتك وقدرك وشجاعتك فَقَدْ آن الأوان كَيْ تكون حساماً حادًا على أعداء الإسلام والمسلمين .

بات حُسَام الدِّيْنِ ليلته الأولى في خيمة خاله ، وفي الصباح الباكر كان ضمن مجموعة الفرسان تحت أمرة زوج أمه محمد بن شيركوه .

مَرَّ شهرٌ واحٌد عَلَى الرّاحةِ والاسترخاءِ وبَعْدَها أمرَ صَلاَح الدِّيْنِ بالاستعداد للتدريبِ ، فصارَ يعقد كُلَّ ليلة جلسات مَع كبار قادته بالإضافة إلى وجهاء الْقُرَى والمناطق القريبة مِنهُمْ مستفيدًا من خبراتهم فِي الطُّرق والوديانِ والسّهولِ .

ذَاتَ ليلة حملت لَهُ الْحَمَامَةُ الْقَادِمَةُ من دِمَشْقَ رسالةً عجيبةً :

ـ كثرتْ حالاتُ الالتهاباتُ المعويةُ فِي المستشفى النوري وَقَدْ أشارَ عليَّ الصيادلة والأطباء بعشبة الميرمية ، وقالوا : إنَّ الأنواع الجيدةَ تنمو فِي شمال فلسطين ، فإن وجدت مِنْهَا فأرسل لنا بعض عيدانها مَع الْقَادِمِيْنَ لدِمَشْقَ . والسّلام .

المرسلةُ : أختك فَاطِمَة خاتون

المكان : البيمارستان النوري .

اجتمع صَلاَح الدِّيْنِ مَع أطبائِه ، فشاورهم فِي الأمر وأجمعوا أنَّ أغصانَ نبتةِ الميرمية علاجٌ ناجعٌ وشافٍ بإذنِ الله .

عادتِ الْحَمَامَةُ الَّتِيْ وصلت من دِمَشْقَ ، برسالة تحمل فِي طياتها العلاج ، فَقَدْ أمر صَلاَح الدِّيْنِ بربطِ أغصانِ الميرميةِ بأرجلِ الحماماتِ الخمسين الَّتِيْ تبعتها !!

كادَ الرَّبيعُ أَنْ ينقضيَ وبدأت ملامح الصَّيفِ تدبّ فِي الْبِلادِ ، عندها أفصح صَلاَح الدِّيْنِ عَنْ خطتهِ الخطيرة .

أَرْسَلَ جيشًا يحاصر قَلْعَةَ طَبَريّةَ الَّتِيْ ما زالت بيد الصَّلِيْبِيِيْنَ ، ولم يكنْ من وسيلة لاستدراجِ الصَّلِيْبِيِيْنَ سوى مهاجمة طَبَريةَ ، حَيْثُ علم صَلاَح الدِّيْنِ أنَّ « سيبيلا » زوجة ملك الْقُدْسِ تحتمي فِيْهَا ، وأعطى أمرًا لجنوده ألا يُظهروا قوتَهم وبأسَهمْ ولا سيَّما فِي الطَّرق الَّتِيْ يعتادها المسافرونَ .

ثارت ثائرة الصَّلِيْبِيِيْنَ لمَّا وصلتهم الأخبار ، وعقدوا مجلسًا لبحث الأمر ، وافترقَ الحاضرونَ إلى فريقينِ :

ـ أحدهمَا يرى ضرورةَ الزَّحفِ إلى طَبَريّةَ لضربِ صَلاَح الدِّيْنِ .

ـ والآخرُ يرى خطورةَ هَذَا العملِ لصعوبة الطَّريق وقلة الماء ، وكانَ يدعمُ هَذَا الرّأيَّ فريقُ الحُكماءِ ويتزعمهمْ ملكُ الْقُدْسِ بالرَّغم من حصار زوجته « سيبيلا » .

وأمَّا أَرْناط الَّذِيْ فرَّ من الكرك والتحق بالقيادة العليا للفرنجة ، فَقَدْ اتَّهم ملكَ الْقُدْسِ بالجبنِ والخوفِ منْ لقاءِ المُسْلِميْنَ ، وأخيرًا وافقَ الملكُ عَلَى رأي أَرْناط مكرهًا .

حملتِ الْحَمَامَةُ الزاجلةُ أخبارًا سارة لصَلاَح الدِّيْنِ :

لَقَدْ بدأت مسيرة الجيوش الصليبية نَحْوَ طَبَريةَ لفك الحصارِ عَنْ قلعتها.

فرح صَلاَح الدِّيْنِ أيما فرحٍ ، وفي اجتماعِ الخيمةِ تشاورَ مَع كبارِ قادتِهِ وعلى رأسهم المحمدان : محمد بن شيركوه ومحمد بن لاجين شاورهم عَلَى خطة الهجوم ، فكان الرأي أن يُسْتَدرجوا على سهلٍ يحيط بهم جنود المسلمين من كلِّ جانب .

فرح حُسَام الدِّيْنِ لاشتراكه في التشاورِ كما فرحَ خالُه بحسن رأيه وحصافته .

اقتضت الخطّة أَنْ تتمركزَ قواتُ المُسْلِميْنَ فِي المنطقةِ العليا من تلالِ حطّينَ حَيْثُ ينابيع المياهِ ، وأنْ يمنعوا الصَّلِيْبِيِيْنَ منَ التزودِ مِنْهَا ، وأن يجمعوا ما أمكنَ من الحطب اليابس والقشّ وسنابلِ القمح الصفراء فَقَدْ آنَ موسمُ الحصادِ ، فخرجَ أطفال قرى حطينَ ولوبيا وطرعانَ وصفوريةَ وغيرها من القرى المحيطةِ بسهلِ حطينَ يجمعونَ ما خلَّفهُ الفلاحون ويهدونها للجيش الَّذِيْ وزعها بشكل محكمٍ عَلَى رؤوسِ التلالِ .

بينما القائد في خضم إعداده للمعركة المصيرية حملت له الْحَمَامَةُ الْقَادِمَةُ من دِمَشْقَ الرّسالة التالية :

ـ شكراً لك يا أخي ، لَقَدْ كانتِ الميرميةُ علاجًا ناجعًا للمرضى ، وأرجو أن يكون ابني محمدٌ في مقدمة الصفوف لا في مؤخرتها .

بَعْدَ مسيرةِ خمسةِ أيامٍ متوالية فِي الصيف الملتهبِ ، وصلت قوات الصَّلِيْبِيِّيْنَ إلى سهل حطّينَ ونصبُوا خيامهم وكانوا هالكينَ منَ العطش فأرسلوا بَعْض جنودِهم إلى ينابيع الماءِ كَيْ يملؤوا قربهم[1] لَكِنَّهُمْ فوجئوا بالرّماح تتناوشهم[2] منْ كُلِّ جانبٍ ، فقفلوا[3] مهزومينَ إلى معسكراتهم ، حاولوا ثانيةً وثالثةً لَكِنَّهُمْ لَمْ يفلحوا .

اشتدّ بهم العطشُ ونَفِدَ الماءُ الَّذِيْ بحوزتهم فاضطروا لشربِ الخمرَ فسكرَ مِنهُمُ الكثيرُ وصاروا يتمايلون فِي كُلّ اتجاه . فيا لَهُ منْ منظر جميلٍ لا يرى جماله إلا المظلومون !!

حانتْ ساعةُ الحسمِ وصارتِ الفرصةُ سانحةً لصَلاَح الدِّيْنِ فأمر بإشعال النيرانِ من الجوانب الَّتِيْ تهب فِيْهَا الرّياح باتجاه الصَّلِيْبِيِّيْنَ .

---

(١) القربة : وعاء جلدي للسوائل .

(٢) : تناوشوا : تناول بعضُهم بعضًا بالرّماح ولم يتدانَوْا .

(٣) قفلوا : رجعوا .

ما هَذِهِ المكيدة الَّتِيْ وقع فِيْهَا جيش الصَّلِيْبِيِيْنَ ، لقَدِ اجتمع عليهمْ أربع مزايا كانتْ لصَلاَح الدِّيْنِ نعمة ، وعليهم نقمة : عطشٌ ، وحرٌ شديدٌ ، ولهيبُ نارٍ ، وتعبٌ مضنٍ ، وازدادتْ بخامسةٍ جلجلتْ قلوبَ الصَّلِيْبِيِيْنَ فَقَدْ أمرَ صَلاَح الدِّيْنِ جنودَه بالتكبيرِ والتهليلِ ، فخارتْ قواهم وَهُمْ يسمعونَ تكبيرات الْجَيْشِ وتهليلهِ الَّتِيْ تقطع سكون الليل ، وتهزُّ أرجاءَ المكانِ ، وصارتْ تثيرُ الفزعَ فِي قلوبهم .

وَبَعْدَ أَنْ تأكد صَلاَح الدِّيْنِ من خورِ قواهمْ شنَّ عليهم هجومًا عنيفًا ، فالتحم[1] جيشُهُ القويُّ مَع جيشهم المنهكِ ، فتضعضعتْ[2] صفوفُ السّكارى وأهلكتِ السِّهامُ الكثيرَ مِنهُم ، وَبَعْدَ سبعِ ساعاتٍ انْجَلتِ المعركةُ وغبارُها ، فالقتلى بالآلاف والجرحى مثلهم ، وَأمَّا من تبقى حيًّا فإمّا هاربٌ وإمّا أسيرٌ لا يدري أهُوَ فِي حلم أَمْ فِي يقظةٍ ، ولكنَّ أكثرهم كَانَ يردد : ماء ماء .

بالرّغمِ من شدةِ المشهدِ وقساوتهِ إلا أنَّ الرَّحمةَ بالأسرى تجلَّتْ فِي حينها وفرضتْ نفسَها عَلَى الَّذِيْنَ يعرفونَ الرّحمةَ والإنسانيةَ فَقَدْ جُمع الأسرى كلُّهم وقُدِّمَ لَهُم الماءُ العذبُ .

كَانَ من بَيْن الأسرى ملكُ بيْتِ المَقْدِسِ ومَعَهُ مئةٌ وخمسونَ من

---

(١) التحم الجيشان : تقابلا واشتبكا .

(٢) تضعضع : أَصَابَهُ الضَّعْفُ وَالوَهَنُ .

الفرسانِ القادةِ ، وكمْ كانتْ فرحةُ صَلاَح الدِّيْنِ كبيرة لمَّا رأى أَرْناط بَيْنَهم ، فها هُوَ عدو الله يقف صاغرًا ذليلاً بَيْنَ يديه ، التفتَ إلى القادةِ والأمراءِ وحيَّاهم جميعًا إلا أَرْناطَ ، وأمرَ لَهُمْ بالماء المثلج .

وأمَّا أَرْناط فَقَدْ صار يتلوى من العطشِ ، فأشفقَ عَلَيْهِ ملكُ بيْتِ المَقْدِسِ فأعطاهُ ما تبقى من كوبه ، فغضبَ صَلاَح الدِّيْنِ وَقَالَ : « إنَّ هَذَا الملعونَ لا يشربُ الماءَ إلا بإذني وأنا لَمْ آذن لَهُ » ، خافَ ملكُ الْقُدْسِ وسحبَ الكوبَ مِن أرناطَ وأكمل شربَهُ ، عندها تقدم صَلاَح الدِّيْنِ من أرناط وذكّره بجرائمهِ وتطاولهِ عَلَى سيدِ البشرِ ، وطلبَ مِنهُ الاعتذار لكنَّ غرورَه منعه منْ ذَلِكَ فأبى ورفض ، فقام إليه وضرب عنقه .

ارتعدتْ فرائصُ ملكِ الْقُدْسِ لمَّا رآه ؛ ولكنَّ صَلاَح الدِّيْنِ طمأنَهُ قائلاً :

ـ دينُنا يأمرنا بالإحسانِ إلى الأسرى ؛ لكنّني أقسمتُ أَنْ أقتلَ أَرْناطَ بسيفي لأنه شتمَ نبينا وهدَّدَ بنبش قبرهِ .

نصبَ صَلاَح الدِّيْنِ عدة خيامٍ جديدة فِي سهول حطّينَ ، ووزع القادة الأسرى الصَّلِيْبِيِّيْنَ فِيْهَا ، كلُّ خمسةٍ أو ستةٍ فِي خيمةٍ واحدةٍ ،إلا ملك الْقُدْسِ فَقَدْ جهز لَهُ خَيْمَة جميلة تليق بمكانته ، دُهِشَ الملكُ منْ هَذِهِ المعاملةِ الحسنةِ وقبلَ غروبِ شمسِ هَذَا اليوم

الطَّويل ، وصلت دهشته للنهاية ، فوجىء بزوجته « سيبيلا » تدخل عَلَيْهِ بكُلّ أمان وسلام فَقَدْ حررها صَلاَح الدِّيْنِ وأمر أتباعَهُ فِي طبرية بالإحسانِ إليها وإحضارِها لحطينَ ليلتمَّ جمعُ شملِها[1] مَع زوجِها .

■ ■ ■

(١) جمع الشمل : جمع الأقارب .

بين مسجد بني أمية والمسجد الأقصى

بينما كان إمام الجامع الأموي الكبير بدمشق يصلي في المسجد ، تراى له خيال من خلفه ، ولما انتهى من الصلاة التفت فإذا خلفه امرأة تتشح السواد ومعها بنت يافعة ، وكانتا تحملان صرتين كبيرتين وما إن استدار نحوهما حتى رمتا الصرتين أمامه وقالت المرأة :

لقد علمتُ أن بلدتين قرب القدس قد ذبح رجالهما وأطفالهما على يد جنود الصليبيين ، وسبيت نساؤهما وحُملن إلى أوربا ليبَعن في أسواق النخاسة في باريس وروما عاريات ، فإن كانت تنقصكم الحبال لتسرجوا بها خيولكم وتلتحقوا بجيش الناصر صلاح الدين الأيوبي (وكانت جيوش المسلمين في ذاك الوقت بقيادة القائد صلاح الدين الأيوبي تقاتل جيوش الصليبين في حطين) وتغيثوا نساءكم فها هي ضفائر نساء وبنات دمشق لتسرجوا بها خيلكم ولتثأروا لأخواتنا وأهلنا في فلسطين .

تمتم الشيخ بكلمات بالكاد كانت تسمع :

حسبنا الله ونعم الوكيل ، حسبنا الله ونعم الوكيل. . . يحصل خير إن شاء الله تعالى. . . يحصل خير يا ابنتي. . . بارك الله بك وبحرائر دمشق .

انصرفت المرأة وابنتها واختفيتا في جنح الظلام في حارات دمشق الضيقة .

أسرع الشيخ إلى بيت الوالي يبلغه بالخبر وتشاورا في الأمر قبل أن يعود الشيخ إلى المسجد الأموي .

وفي صباح اليوم التالي ارتفع صوت المنادين من فوق مآذن المسجد الأموي ومآذن مساجد دمشق ينادي في الناس الصلاة جامعة مسجد بني أمية الكبير .

شاع الخبر سريعاً في الشام وبدأ الناس يزحفون إلى المسجد الأموي ، دخل الناس فوجدوا ضفائر حرائر دمشق منشورة على المنبر وحائط القبلة . امتلأ المسجد والأحياء المجاورة له فقام فيهم خطيبا وحثهم على الالتحاق بحيش الناصر صلاح الدين الأيوبي بعد أن أخبرهم بخبر القريتين اللتين سبيت نسائهما وقتل رجالهما وأطفالهما ، وأخبرهم بأن نساء دمشق قدمن ضفائرهن ليسرجوا بها خيلهم لنجدة إخوتنا ونساءنا وأمهاتنا في فلسطين ولرفع الظلم عنهن ، ولغسل العار والأخذ بالثأر لهن من الجيوش الهمجية

الصليبية الحاقدة ، فخرجت الشام شيباً وشباباً والتحقوا بجيش بجيش صلاح الدين . وكان بينهم من يتشحُ بالسوادِ من الرأس حتى أخمص القدمين !

وما بين حطين والقدسِ التحقَ المجاهدون الدمشقيون بجيش صلاح الدين ، وأعاد القائدُ تنظيم جيوشه من جديدٍ وتوجه صوب بيت المقدس وحوصرت القدس واستعصت على المسلمين وقتل خلق كثير من الطرفين .

وقبل دخول القدس حصلت مفاجأة كبيرة عندما نادى ابن عصرون بالناس أن شيعوا شهداء المسلمين .

كأن بين شهداء المسلمين جنود ملثمون يتشحون السواد وقد أبلوا في المعارك بلاءً مشهوداً ، ولما كشفوا عن وجه واحد منهم إذ به امرأة قد حلقت رأسها ولبست السواد وتلثمت كي لا يعرفها أحد .

ليست واحدة أو اثنتان ؛ بلِ العشرات من الملثمات اللواتي يتشحن السواد وكن جميعاً نساء حليقات هن من قدّمن ضفائرهن ليسرج بها الجنودُ خيولَهم .

■ ■ ■

فتح بيت المقدس

لَمْ يبقَ من الْبِلادِ بلدةٌ محتلةٌ إلا الْقُدْسَ وبعض الْقِلاعِ على السّاحل ، فالقدس لها مكانة خاصة عند صَلاَح الدِّيْنِ والمسلمين وعند الصَّلِيْبِيِيْنَ أيضاً فهي عاصمتهم ومركز قيادتهم .

وصلى على الشهداء والشهيدات صلاة الجنازة وطهر القرى من فلول المجرمين .

بَعْدَ أَنْ أخذ صَلاَح الدِّيْنِ وجنودُه استراحةَ المحاربِ ونشوةَ النصرِ ، نادى المنادي فِي معسكراتِ جيشِ المسلمينَ :

ـ حيَّ عَلَى الجهادِ .

ـ حي عَلَى الفلاحِ .

ـ لبيكِ يا بيت المقدس .

اتَّجهَ صَلاَح الدِّيْنِ نَحْوَ أوْلى القبلتينِ وثالثِ الحرمينِ ، وحاصرها ولم يكنْ بمقدورِ حاميتها الصليبيةِ الصَّغيرة أَنْ تحميَها من

ستينَ ألفِ مقاتلٍ تهدرُ حناجرُهم : « اللهُ أكبرُ » .

فاستسلمت بَعْدَ ستة أيام .

فُتحتِ الأبوابُ ، وبدتْ حزينةً كئيبةً ، مساجدها الَّتِيْ كانت في حالةٍ يرثى لها ، وكنائسها العتيقة تشكو حالها ، ولم يبق شيء عَلَى حاله إلا سورها الكبير فَقَدْ عززه الصليبيون خوفاً من المهاجمين ، وأما أولى القبلتين وثالث الحرمين فلم يبق منه أي شيء يدل عَلَى التوحيد ، اصطبلات الخيول حَوْلَه ، وحظائر الخنازير ترعى قريبة منه ، وهو مبيت لها في فصل الشتاءِ !!

وحتى شوارع المدينة المقدسة ملأها الصليبيون بالصلبان وحولوا مساجدها إلى كنائس ومراكز لقيادتهم البائسة .

وَسُرْعَانَ ما تبدل الحالُ وعادت الرّوح للجسدِ . . نُزِعَ الصَّليبُ من فوق الْمَسْجِدِ الأقصى ، وخفقتْ رايةُ السُّلْطَانِ صَلاَح الدِّيْنِ الصفراءُ مكانه وأمرَ الجنود بتنظيف الْمَسْجِدِ وإزالة القاذورات مِنهُ .

وفي اليوم التَّالي أمرَ القائدُ الفاتحُ الصَّلِيْبِيِّيْنَ كافةً بالخروجِ إلى ساحة كبيرة وتلا عاملُ صَلاَح الدِّيْنِ البيانَ التَّالِي :

ـ أَيُّهَا النصارى دينُنا دين الرّحمةِ والمحبةِ ، لا نحبُّ القتلَ ولا سفكَ الدماءِ ، ولكنْ منْ يعتدي عَلينا نعتدي عَلَيْهِ ـ نحنُ معاشرَ المسلمينَ ـ لا نغدرُ بأحدٍ ، ولا نقتلُ أسيرًا ، ولا نجهزُ[1] عَلَى

(١) أجهز على الجريح : أسرع في قتله .

جريحٍ ، ولا نقْطعُ شجرة ، ولا نهْدمُ معبدًا .

أَيُّهَا الصليبيون : عليكمْ أَنْ تغادروا الْقُدْسَ فِي غضون أربعينَ يومًا بَعْدَ دفعِ فديةٍ مقدارها عشرةُ دنانيرَ عَنْ كُلّ رجلٍ ، وخمسةٌ عَنْ كُلّ امرأة ، ودينارٌ واحدٌ عَنْ كُلّ طفلٍ .

ومنذُ صباحِ اليومِ التَّالِي من قراءة البيانِ بدأتْ جموعُ الصَّلِيْبِيِيْنَ بدفعِ الفديةِ ومغادرةِ المدينةِ وبينما صَلاَح الدِّيْنِ يراقبُ المشهدَ قربَ خيمته ، تقدم مِنهُ عجوزٌ صليبيٌّ تجاوز الثمانين يتَّكىءُ عَلَى عصًا غليظةٍ قائلاً :

ـ هلّا سامحتني يا ابنَ أيُّوبَ فأنا فقيرٌ لا أملك المال ؟

سُرْعانَ ما رَدَّ صَلاَح الدِّيْنِ :

ـ أسامحكَ وأسامحُ كُلّ من لا يملكُ المالَ !!

تعجّبَ العجوزُ من كرمهِ ونبْلهِ فقال لَهُ : كريمٌ ابنُ كريمٍ ، لَقَدْ وقعتُ أسيرًا قبلَ أكثر منْ أربعين عامًا عنْد والدكَ أيُّوبَ فِي حَلَبَ فأحسنَ إليَّ .

دُهش صَلاَح الدِّيْنِ وَقَالَ لَهُ :

ـ لماذا سجنكَ أبي ؟

قَالَ لَهُ :

ـ كنتُ زعيمًا لعصابة تَقْطعُ الطَّريقَ عَلَى قوافلِ المُسْلِميْنَ ، نسلبُ

متاعهم ، ونأخذُ نقودهم ، وذَاتَ يومٍ أحاطَ بنا أيُّوب وجنودُه وأخذونا أسرى .

رَدَّ عَلَيْهِ صَلاَح الدِّيْنِ بَعْدَ أَنْ تفرَّس[1] فِي وجههِ :

ـ هلاّ ذكرتَ ليَ المكان ؟

قَالَ العجوزُ :

ـ نعمْ أذكرهُ جيدًا ، عندَ تلِ الصّوانِ بَعْدَ خمسة أميالٍ فِي الطَّريق من حَلَبَ إلى دِمَشْقَ .

ابتسمَ صَلاَح الدِّيْنِ وَقَالَ لَهُ :

ـ يا سيمونُ هَلْ تعرفُ الفتى الَّذِيْ رفضَ دفعَ الفدْيَةَ ؟

رَدَّ وَهُوَ فِي ذهولٍ : آهٍ ، آهٍ ، وكَيْفَ أنساه ؟

بَلْ أذكرُ ما قاله لنا : سيأتي يومٌ تدفعونَ الجزيةَ للمسلمينَ وأنتمْ صاغرونَ ، ولكن كَيْفَ عرفت اسْمي أَيُّهَا القائد العظيم ؟ .

ابتسم صَلاَح الدِّيْنِ وَهُوَ يقول :

ـ للباطل جولة وللحق جولاتٌ ، كم أنتِ صغيرة أيتها الدنيا .

وبينما هُما يتجاذبانِ[2] أطرافَ الحديثِ ؛ إذْ بسربٍ كبيرٍ من الحمامِ الأبيضِ يحطُّ عَلَى أسوار الْقُدْسِ منْ كلِّ جانبٍ نظرَ إليه

---

(١) تفرس في وجهه : نظر فيه مليًا .

(٢) يتجاذبان أطرافَ الحديثِ : يَتَبَادَلانَ أَطْرَافَهُ .

صَلاَح الدِّيْنِ مبتسمًا ثُمَّ توجَّه نَحْوَ سيمونَ قائلاً :

ـ لماذا تكْرهونَ الحَمَامَ يا سِيمونَ ؟

مشى سيمون نحوَ بابِ القدسِ مَع ثلةٍ منْ أصحابهِ ممن بلغوا من العمرِ عتيًا ، الكلُّ كان وجهه ورجلاه باتِّجاهِ البابِ ، إلاَّ سيمون فَقَدْ كانتْ رجلاه باتجاهِ البابِ ، وأمّا وجهه الغائرُ ذو العينين الغائرتين والفمِ المفتوح فظلَّ باتجاه صَلاَح الدِّيْنِ وَهُوَ مذهولٌ مما دار بينهما .

ملاحقة الفلول بَيْنَ كَرٍّ وفَرّ

لَمْ تنتهِ الحروبُ الصليبية بفتحِ بيتِ المقدسِ فإماراتهم وقلاعهم الَّتِيْ انتشرت فِي بلادِ الشَّام ولا سيما عَلَى السّاحلِ الشَّامي من عَكَّا إلى طرابلس الشَّام بقيت قويةً منيعةً بَلْ إنَّ كَثِيْرًا من الجند فروا إليها بَعْدَ معركةِ حطينَ ، وصارتْ الإمداداتُ والمؤنُ تصلُّهم من البحرِ وكانتْ أقوى إمارة هِيَ إمارة صور فَقَدْ شغلت بال صَلاَح الدِّيْنِ أكثر من غيرها .

وقبلَ حصارِ صور توجّه صَلاَح الدِّيْنِ بجيشه إلى قَلْعَةِ صفدَ وحاصرها سبعة شهور ، وَلَمَّا نفذ الطَّعام وجاعت الحامية طلبوا الأمان واضطروا أَنْ يُسَلِّموا الْقَلْعَة لَهُ ، وعندما غادرها جُنُودُ الفرنجة وفرسانهم وذهبوا إلى صور ؛ وكان الفرنجة عندما يسلمونَ كلَّ قَلْعَةٍ أو حصنٍ أو مَدِيْنَة تطلب الأمانَ يسلمونها ثم يغادرونها إلى صور ؛ فقويت بوجود جُنُودِ الصَّلِيْبِيِيْنَ فِيْهَا ، وصارت صورُ تؤرق البطل كثيرًا .

وَبَعْدَ أَنْ انصرف صَلاَح الدِّيْنِ عَنْ صفد واصل فتح المدن والقلاع ففتح جبلة واللاذقية وحصون صهيون والشغر والكرك وكوكب ، كما سعى بوهمند الثالث صاحب أنطاكية لمهادنة صَلاَح الدِّيْنِ لمدة ثمانيةِ أشهرٍ ، فقبلَ صَلاَح الدِّيْنِ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يطلق بوهمند من عنده من أسرى المسلمين .

ها هِيَ مَدِيْنَة صور تمتلأ بالجنود الفارين من حطين وغيرها ، قام بعض الرّهبان بشحن الجنود للثأر لفقدان بيت المقدس ، فرأوا أَنْ يهاجموا عَكَّا ، فجمعوا قواتهم وضربوا عليها حصارًا بريًا بحريًا فِي عام (٥٨٥ هـ) استنجدتْ حاميةُ المدينةِ بصَلاَح الدِّيْنِ فأرسل إلى عماله وحلفائه يطالبهم بالإسراع إلى نجدةِ المدينةِ ، فانطلقتِ الْجحافلُ منْ كلِّ مكان لمعركةِ عَكَّا الكبرى ، وغيرها من بلادِ الجزيرةِ وحرَّان والرُّها ، كما وافاه أخوه الملك العادل أبو بكر بن أَيُّوب فِي جند مِصْرَ والأسطول المصري بقيادة حُسَام الدِّيْنِ لؤلؤ ، فدارت بَيْنَ الفريقين معاركُ عظيمةٌ لَمْ يكتب فِيْهَا الغلبة لأي من الفريقين ، ولكنَّ أمرًا جللاً أرَّق جُنُود صَلاَح الدِّيْنِ ذات يومٍ كئيبٍ .

لَقَدْ فوجئوا بثلاثة أبراج خشبية عملاقة طول كل بُرْج أكثر من ستين ذراعاً وفي كل بُرْج خمس طبقات ينتشر عليها جُنُود الصَّلِيْبِيِيْنَ يرمون جيش صَلاَح الدِّيْنِ بالنبال الحارقة .

حاول جُنُودُ المسلمين قذف هَذِهِ الأبراج بالنيران الملتهبة كما كانوا يفعلون من قبلُ لَكِنَّهُمْ وجدوا أَنَّ نيرانهم لا تؤثر فِيْهَا أبدًا ، حاولوا وحاولوا لَكِنَّهُمْ لَمْ يفلحوا ، لَقَدْ غدا هَذَا السّلاح الجديد حديث الْجَيْشِ صباح مساء وليل نهار .

وأخيرًا علم صَلاَح الدِّيْنِ سرَّ هَذِهِ الأبراج ، فَقَدْ قام الصليبيون بتغطيتها بالجلود السّميكة ، والخل ، والطِّين وبعض العقاقير الَّتِيْ تمنع النار من إحراقها .

اجتمعَ مَع قوادهِ فِي خَيْمَة بعيدة لا تطالها قذائف الصَّلِيْبِيِّيْنَ يتداولون الأمر ، أينسحبون أَمْ يفكرون فِي طريقة لدحر هَذِهِ الأبراج أو إحراقها ؟

وفي غمرة التفكير إذ بشاب يستأذن فِي الدخول ، فأذن صَلاَح الدِّيْنِ لَهُ وسأله عَنْ حاجته فقال :

أنا اسْمي مجاهدٌ من دِمَشْقَ عندي حلٌّ لهذه الأبراج المنيعة !!

سرعان ما قَالَ صَلاَح الدِّيْنِ :

ـ ما هُوَ الحل يا بني ؟

رَدَّ مجاهد :

كنت أعمل فِي معمل العقاقير المقابل للبيمارستان النوري الَّذِيْ كانت تديره أختكم سِتّ الشَّامِ وهُنَاكَ بعض المواد والسّوائل إذا

أحضرتموها لي فسأصنع لكم مادة تقذفون بِهَا الأبراج فتشتعل .

أطرقَ[1] صَلاَح الدِّيْنِ قليلاً ثُمَّ رفعَ رأسَه مخاطبًا كبير رماة المنجنيق :

ـ أحضروا لَهُ ما يُرِيْدُ لعلَّ النصر يكون عَلَى يد هَذَا الفتى الشَّامي .

فِي صباح اليوم التَّالِي كانت القدور والسّوائل والعقاقير بَيْنَ يديْ مجاهدٍ وجنود الرّماة الَّذِيْنَ ساعدوه فِي تركيب العقاقير مَع القطن والطِّين وَبَعْدَ أن اطمأن مجاهد إلى اختمار العجين الجديد طلب من الرّماة أَنْ يستعدوا لقذفها مباشرة عَلَى الأبراج بكل طبقاته .

كَانَ جُنُودُ الصليبيون إذا رأوا القذائف لا تحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون عَلَى أسطح الطَّبقات وَهُمْ لا يبالون بما يلقى عليهم .

عندما أيقن مجاهد أَنَّ المواد الَّتِيْ ألقيت عَلَى الأبراج قَدْ تمكنت مِنْهَا واختلطت بالجلد والأخشاب أمر المنجنيقي أَنْ يلقي قدراً مملوءة ناراً عَلَى الطَّوابق العليا من كل بُرْج .

ردد مجاهد مَع رماة المنجنيق :

ـ بسم الله ، الله أكبر .

---

(١) أطرق : خفض رأسه يفكر .

وماهي إلا لَحَظَات حَتَّى اضطرمتِ النار فِي أعلى البرجِ الأولِ وامتدتْ للأسفلِ حَتَّى وصلت للطبقاتِ الخمسةِ ، وأمَّا الَّذِيْنَ كانوا فِي البرج الثاني والثالث يضحكون ويرقصون ألقى بعضهم بنفسه فِي البحرِ وَبَعْضُهُمْ شوهد فِي الهواءِ وملابسهُ تحترق من الخلفِ ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يتمكن من أَنْ يلقي بنفسه فصارَ في عداد المفقودين أو المحترقين .

وأما مجاهد ورماة المنجنيق وصَلاَح الدِّيْنِ والجنود كلهم استشعروا بالفرح والسّرور وخروا لله ساجدين عَلَى هَذَا النصر المؤزر .

وَبَعْدَ هَذِهِ الواقعة المشهودة تم دحر الصَّلِيْبِيِّيْنَ وتحرير البلد منهم .

وَبَعْدَ أن اطمأن صَلاَح الدِّيْنِ عَلَى جنوده وجيشه رغب بالعودة لدِمَشْقَ والاستقرار فِيْهَا ، فهمَّته لَمْ تعدْ كما كانت فِي السّابق ويبدو أَنَّهُ حنَّ للشّام ولسِتّ الشَّام ولعصمةِ الدين خاتون التي أخذ منها عتابًا شديدًا لأَنَّهَا في الآونة الأَخيرة لم تعدْ ترد على رسائله المتكررة ، وشعر أَنَّهُ بحاجةٍ للراحة بَعْدَ أَنْ حققَ ما يصبو إليه .

ولكن لا بد من المرور عَلَى الْقُدْسِ والصلاة فِي الْمَسْجِدِ الأقصى ففي الأول من رمضان من عام (٥٨٨) من الهجرة كان المقدسيون على موعدٍ عظيمٍ ، سيصلُ منبرُ نُوْرِ الدينِ من حَلَبَ كَيْ ينصبَ هُنَاكَ

في المسجد الأقصى ، فوجدها صَلاَح الدِّيْنِ مناسبةً عظيمةً يشرف عليها بنفسه رغبةً في تحقيق مشروعِ رفيق دربه السُّلْطَان نُوْرِ الدين .

بَعْدَ الاحتفال الكبيرِ بتركيبِ المنبرِ الجميلِ ظنَّ الناس أَنَّ القائدَ سيرجع فِي الحال لدِمَشْقَ لكنه آثر البقاء هُنَاكَ فلعلها تكون آخر زيارة لأولى القبلتين وثالث الحرمين هكذا أحسَّ القائد وأسرَّها للمحبين له ، وأرسلها برسالة لرفيقة دربه عصمة الدين خاتون أن يكون اللقاء بها بعد عيد الفطر المباركِ .

وَبَعْدَ انقضاء رمضان والاحتفال بعيد الفطر المبارك وتلقي تهاني النصر الكبير ، وفي الخامس من شوال تحرك موكب صَلاَح الدِّيْنِ صوب دِمَشْقَ وإن كانتْ نفسه تتوق للذهاب إلى مكة ولكن هيهات .

■ ■ ■

العودة لدِمَشْقَ

ها قَدْ عدت إليك يا دِمَشْق ، لقد اشتقت لجامعك الأموي ولقلعتك المنيعة ولأسواقك العامرة ومدارسك الناهضة ، عدت إلى من تبقى من أهلي ، إلى زوجتي الحبيبة عصمة الدين ، إلى أختي فَاطِمَة خاتون سِتّ الشَّام ، إلى المدارس والمعاهد والزوايا والتكايا الَّتِيْ امتدت داخل السّور وخارجه .

هكذا عَبَّر صَلاَح الدِّيْنِ عَنْ مكنوناته وَهُوَ يرى دِمَشْقَ شامخة كالأسد الرّابض ينظر فِي كل الاتجاهات .

دخل الْمَسْجِدَ الأموي وصلى لله ركعتي شكر ، وعَرَّج إلى الْقَلْعَةِ حيث عصمة الدين الزوجة الحنون .

ـ أين أنت يا عصمة الدين ؟

لا أحد أحبَّ أن يجيبه ، فالموقفُ رهيبٌ .

انتظر الأعيانُ والملأُ من القومِ قدوم ابْن عَصْرُونَ من مدرسته

القريبة من الأموي بفارغ الصبر فهو الوحيد الَّذِيْ يستطيع أن يبلغه الخبرَ السّيئ !!

ـ لقد انتقلت إلى جوار ربِّها أَيُّهَا السُّلْطَان المؤمن ، هكذا قال ابْنُ عَصْرُونَ !!

لم يكن وقوعُ الخبرِ بالأمر الهيِّن على مسامع السُّلْطَان المريضِ ، كاد يسقط أرضًا لولا أن تداركه ابْنُ عَصْرُونَ واثنان من حُرَّاسِهِ .

بعد أن استعاد قوته وهيبته استرجع وحوقل[1] وطلب منهم أن يرافقوه إلى مدفنها ، وبالرغم من حثهم على تأجيل الزيارة إلا أَنَّهُ أصر على زيارتها فرافقوه إلى التربة الجهاركسية حيث ترقد وهُنَاكَ بكى واستبكى وقرأ الفاتحة وذكر محاسنها ، وعَرَّج بعدها على البيمارستان النوري ليسلم على من تبقى من أهله ، على أخته فاطمة خاتون .

وكان اللقاء جميلاً مملوءًا بالمودةِ والرحمةِ والحنانِ ، لكنَّ الأختَ الحانيةَ بعدَ أنْ عزَّته برفيقةِ دربهَا ، لاحظتْ كبر السّن قَدْ سبق عمره فيبدو أَنَّ ابن السّادسة والخمسين عامًا يبدو عجوزًا فِي الثمانين بادرته بقولها .

لَقَدْ طال انتظارنا لك يا يوسف .

---

(١) قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

رَدَّ عليها :

كنت ستنتظرين أكثر يا خاتون لأنني نويت أن أنطلق لمكة بعد شوال كَيْ أؤدي فريضة الحج ؛ فقتالي للصليبيين وانتقالي من مكان لآخر طوال الأعوام الَّتِيْ خلت منعني من أداء الركن الخامس !!

ردّت عَلَيْهِ فاطمة : إن شاء الله تسترد صحتك وعافيتك وننطلق هذا العام لمكة المكرمة من هُنَا من دِمَشْقَ ، وإن لم نلحقْ نذهب العام القادم بإذن الله .

رَدَّ عليها : لا أعتقد ذلك يا خاتون وأوصيك إن جاء أجلي قبل أن أؤديَ فريضة الحج أن ترسلوا من يحج عني يا أختاهُ .

قالت : استبشر خيرًا يا يوسف ، تفاءل بالخير تجده ، عارضٌ صحي ويزول بإذن الله .

ابتسم صلاح قائلاً : أَتَمَنَّى ذلك ولكن يبدو أنني سأفارقكم عمَّا قريب .

قالت : لا تقلِ ذلك يا عزيزي ، الأعمار بقدر الله ، وأرجو الله أن أراك مسرورًا .

رَدَّ عليها : الحمد لله أولاً وأخيرًا يا فاطمة ، لَقَدْ تعبت كثيرًا يا فاطمةُ ، ولكنني في غاية الفرح والسّرور ولا سيما بعد أن منَّ الله علينا بتحرير الْبِلادِ من الغزاة الطَّامعين ، والله لا أخشى الموت أبدًا .

دارتْ أحاديثُ كثيرةٌ قضاها مَع أخته حَتَّى ساعة متأخرة من الليل تذاكرا فِيْهَا سيرة عصمة الدين وبرها وأعمالها الخيرية الَّتِيْ وصلت لدمشق كلها .

طلب السُّلْطَان من فَاطِمَة أَنْ تنتقلَ لبيتِ أبيها وتعيشَ معه فوافقت في الحال لا سيما أنَّها تبقى قريبة من مريضها العليل تطببه وتهيئ الدواء له .

وهُنَاكَ وبرغم مرضه الشديد وفي ساعاتِ عيادتِهِ منْ قبلِ المحبينَ والمقربينَ بدأَ يضعُ الخططَ مَع العلماء والمشايخِ لفتحِ المزيدِ من المدارسِ والمكتباتِ والمزارعِ والمصانعِ لدِمَشْقَ وغيرِها منَ المدنِ.

ذَاتَ مساء سألته فَاطِمَة :

ـ ماهي الوصية الَّتِيْ تركها الوالد ؟

رَدَّ صَلاَح الدِّيْنِ وَهُوَ مثقل بالأوجاع : لَمْ أنسَهَا ولكنَّني أحبُّ أَنْ أشاورَ العلماءَ ، اليومَ بإذن الله سأستشيرُ بشأنها أَرْجُو أَنْ تكوني معنا .

وَبَعْدَ صلاة العشاء كَانَ ابْنُ عَصْرُونَ وفاطمةُ خاتون ، وبعضُ الأَهْلِ فِي مجلسِ صَلاَح الدِّيْنِ وَبَعْدَ أَنْ قرأ صَلاَحُ الدِّيْنِ وصيةَ أبيهِ الَّتي طال انتظارُها ، التفتَ إلى شيخِهِ ابْن عَصْرُونَ وقال لَهُ :

ـ ما حكم الشَّرع بذلك ؟

قَالَ الشَّيْخُ : مقبرةُ البقيعِ فِي المدينةِ المنورةِ أفضلُ مقبرةٍ على وجهِ البسيطةِ كلِّها ، لأَنَّهَا قريبةٌ منْ رسولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسلم ، وفِيْهَا كبار الصحابة وَكُلُّ مسلم يتمنى أَنْ يدفنَ هُنَاكَ ، ولكنَّ نقلَ الجثمانِ إليها منْ مكانٍ بعيدٍ غيرُ مستحبٍ حَتَّى لوْ كَانَ بوصيةٍ .

شكر صَلاَح الدِّيْنِ ابْن عَصْرُونَ وقرر أَنْ يبقي جثمانَ وَالِدِهِ أيوبَ فِي الْقَاهِرَةِ .

بدأتْ ملامحُ الضعفِ والوهنِ تغزو جسمَ القائدِ العظيمِ ، ويبدو أَنَّ الخبر المفجع الَّذِيْ وصله ذَاتَ ليلة قَدْ زاد فِي وهنه .

جاءه خبر نعي أميرِ نابلسَ ، الأمير الصَّغِيْر الَّذِيْ أحبه ورعاه وَهُوَ يحبو فِي جنبات البيت ، إنَّهُ محمد بن لاجين حُسَام الدِّيْنِ ، ابن أخته ست الشَّام فاطمة خاتون .

إنَّهُ الغالي ابن الغالية فَقَدْ كان وقع المصاب أليمًا على أمه وخاله وأسرته بل والشَّام كلها .

وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ جاءه نعيٌ آخرُ !!

نعيُ ابنِ أخيهِ أميرِ حماةَ تقيِّ الدين المظفر ، القائد الفذ الَّذِيْ كان يهابه الأعداءُ والطَّامعون في الحكم .

حزنت حماة على فقيدها كثيراً ولكن حزن دِمَشْقَ كان مشهودًا ، فالشَّاب اليافع وحيد أمه الَّتِيْ كرست حياتها في تربيته وإعداده يموت

أَمَامَ عينيها ، ما أصعبها من لَحَظَاتٍ مؤلمة .

بالرغم منْ وهن صَلاَح الدِّيْنِ ومرضه شارك مَع أهل دِمَشْقَ فِي تشييعه إلى قبر يليق به فِي وسط المدينةِ ما بَيْنَ الجامعِ الأمويّ وضريح نُوْرِ الدين فِي زاوية من الْمَدْرَسَة الَّتِيْ بنتها أمه وأسمتها بالمدرسة الحُسَامية تيمنًا[1] بوحيدها .

غاب الرّافدُ والحبيبُ والبطلُ الهمامُ ، وما باليد حيلة ، كَانَ أملها فِي حُسَام الدِّيْنِ وها هُوَ يوارى الثرى دون نحيب أو عويل ، بل بدموع حبسها الصبر والاحتساب والرضا بقضاء الله وقدره .

شعر صَلاَح الدِّيْنِ بمصاب سِتّ الشَّامِ ، والشَّام كلها ، وقف قربَها والحزنُ يملأُ قلبيهما تاركًا معالم حزينةً فِي وجهيهما ، يخفف مصابها الجلل يكفكف دموعها الَّتِيْ أصرت أن تتدفق على وجنتيها الناعمتين وهي تردد : حسبنا الله ونعم الوكيل .

كمْ مصابك كبير يا أختاه ، لَقَدْ كَانَ همك فِي الدنيا أَنْ يكون حُسَام الدِّيْنِ بطلاً فذًا مغوارًا عالمًا مجاهدًا ، وَهَذَا القبر الَّذِيْ أوصيتِ أَنْ يدفنكِ فِيْهِ ضمه إليهِ قبلكِ ، لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العليم العظيم ، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت !!

ولم ينسَ أَنْ يرسلَ رسالةَ عزاءٍ إلى حماةَ يعزي فِيْهَا أهل الفقيد بكلمات نابعة من قلب مؤمن بقضاء الله وقدره .

---

(١) تيمناً : طلباً للبركة والخير .

أمَّا أيامُ العزاءِ الثلاثِ فَقَدْ غابَ عنها صَلاَح الدِّيْنِ بعد أن تيقن أن أبناءه وإخوته يقومون بالواجب ويتقبلون التعازي بالمصابِ الجللِ .

مرت أيامٌ وأسابيعُ ثقيلةٌ على صَلاَح الدِّيْنِ ، فَقَدْ قلَّ كلامُهُ ، وغدا طريحَ الفِراشِ ، يومِيءُ في ركوعهِ وسجودِهِ ، ولا يتناولُ من الطَّعام إلا أخفَّه ، ومن الشرابِ إلا ما يسدُّ عطشهُ .

وفي ليلة وقوفِ عرفةَ سألته أخته فاطمة خاتون :

ـ ما الَّذِيْ يبكيك يا أبا المظفر ؟

لم يجبْها بل اشتدت دموعه تنهمرُ بغزارة .

لم تعرفِ السّببَ حَتَّى سمعت مؤذن الفجر من الجامع الأموي يعلن بعد أذان الفجر أن هذا اليومَ هو خيرُ يومٍ طلعت عَلَيْهِ الشمس ، فادعوا لإخوانكم الحجاج على صعيد عرفات .

اقتربتْ منه وكفكفتْ دموعه بيديها الحانتين وقبَّلت رأسَهُ وهي تقول :

لا عليكَ يا أبا المظفَّرِ ، لم يكتب الله لنا حج هذا العام ، علنا نحج العام القادم بإذن الله .

الليلة الأخيرة

مرتْ شهورٌ أربعةٌ عَلَى فقْدِ ابْنِ الأخ وابن الأختِ ، ومرَّت أيامٌ عصيبةٌ عَلَى صَلاَح الدِّيْنِ فَقَدْ ساءتْ صحتُه واجْتمعَ الأطباء الحاذقون فِي دارِهِ القريبةِ من الْجَامِعِ الأُمويّ قَالَ كبيرهم لسِتّ الشَّامِ :

لَقَدْ أصيبَ السُّلْطَانُ بالحمَّى الصفراوية .

وفي يوم السّبت الموافق لـ (١٦ صفر سنة ٥٨٩ هـ) ، أصابه أرق فلم ينم الليل إلا قليلاً ، وأخذ المرضُ يشتدُّ ويزيد ، حَتَّى قَالَ طبيبه الخاص :

إنَّ أجل السُّلْطَان أصبح قاب قوسين أو أدنى .

واستمر المرض يشتد حَتَّى انتهى أبو المظفرِ إلى غاية الضعف .

لم تتركه الأخت الحنون ست الشام ولم تغب عنه إلا في ساعات عملها بالبيمارستان وكثيرًا ما كانت تحضر له العقاقير

والدواء ، ولكن لا مفرَّ من قضاء الله وقدره .

بَعْدَ عشرة أيام من أرقه الشَّديد وقبيل أَذَان الفجر بلَحَظَاتٍ من فجر (٢٧ من صفر) اشتدَّ البكاء فِي دار العقيقي وَسُرْعَانَ ما انْتشرَ خارجها ووصل إلى الْجَامِعِ الأُمويّ وإلى كل حارات دِمَشْقَ وأحيائِها واجتمعَ الناسُ حَوْلَ الدَّارِ يبكون وينحبون ويكبرون ويهللون ، بينما كَانَ الأَهْلُ فِي الدَّارِ يجهزون ميتهم للرحيل فُتحتْ خزائنه لشراءِ الكفنِ .

لَمْ يجدوا سوى سبعة وأربعينَ درهمًا ناصريًا ودينارًا ذهبيًا واحدًا ، اشتروا بِهَا الكفن والطِّيب ، وغُسِّل وكفِّنَ ، وجموع الناس خارج الدَّارِ تزداد وتزداد وفي لَحَظَاتٍ مؤثرةٍ يخرج النعْشُ من الدَّارِ وأهلُ دِمَشْقَ كلهم كَأَنَّ بكاءَهمْ عَلَى نسقٍ واحدٍ ، وحمل للمسجد الأموي وصلوا عَلَيْهِ وامتدت الصفوف لخارج الْمَسْجِدِ غربًا حَتَّى وصلت لِلْقَلْعَةِ ، ولم تشهد دِمَشْقُ جنازةً كهذهِ .

وَحَتَّى حمام الأموي وحمام دِمَشْقَ كلها الزاجل والأهلي والبريّ ، كَانَ عَلَى موعد مَع التشييع ، فها هِيَ قَدْ غطت سماء دِمَشْقَ وكادت أعدادها الكبيرة الممتدة من قَلْعَة دِمَشْقَ وَحَتَّى شرقيّ الأموي أَنْ تحجب ضوء ذَلِكَ النهارِ الرّبيعيّ الْمشمسِ الْحزينِ ، وسارت أسرابها بالآلاف مَع المشيعين ، وعلى بعدِ خطواتٍ من الأموي وفي الْمَدْرَسَة العزيزيةِ وبينَمَا كَانَ البطلُ العظيمُ يوارى الثَّرى ذُرِفتْ دموعُ

المودعينَ وعلا نحيبُهم ، وَالحمامات الَّتِيْ تزاحمتْ عَلَى كلِّ الأماكن وحطَّتْ على جدرانِ الْمَدْرَسَةِ وأشجارِهَا بكتْهُ بهديلِها الَّذِيْ صارَ يُشْبِهُ النَّعيْبَ .

خليل محمود الصمادي / الرّياض

■ ■ ■

المصادر والمراجع

- ابن الأثير ، الكامل فِي التاريخ . دار التوفيقية للطباعة . ٢٠٠٨م .
- ابن شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م .
- ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، وزارة الثقافة السّورية١٩٩١م .
- ابن كثير ، البداية والنهاية ، دار التوفيقية للطباعة . ٢٠٠٨م .
- بهاء الدين بن شداد ، النوادر السُّلْطَانية والمحاسن اليوسيفية ، ٢٠٠٢م .
- العماد الأَصْفَهَانِيّ ، الفتح القسي فِي الفتح القدسي ، ١٨٨٨م .
- المقريزي ، الذهب المسبوك فيما حج من الخلفاء والملوك .

■ ■ ■

المحتوى

الإهداء 5
الشخصيات حسب تسلسلها في الرّواية 7
ولادة عسيرة 9
في قلعة الموصل 17
في قلعة حلب 23
الطريق إلى دمشق 31
في قلعة دمشق 41
الرسالة العجيبة 53
الزحف إلى مصر 61
محاولة اغتيال شيركوه ويوسف 75
وفاة شيركوه والعاضد 85
معركة دمياط 91
وفاة نجم الدين ٥٦٨هـ 101
وفاة السلطان نور الدين (٥٦٩هـ) 109

محاولات متكررة للاغتيال 117
معركة حطين 129
بين مسجد بني أمية والمسجد الأقصى 139
فتح بيت المقدس 143
ملاحقة الفلول بين كر وفر 149
العودة لدمشق 155
الليلة الأخيرة 163
المصادر والمراجع 166
المحتوى 167